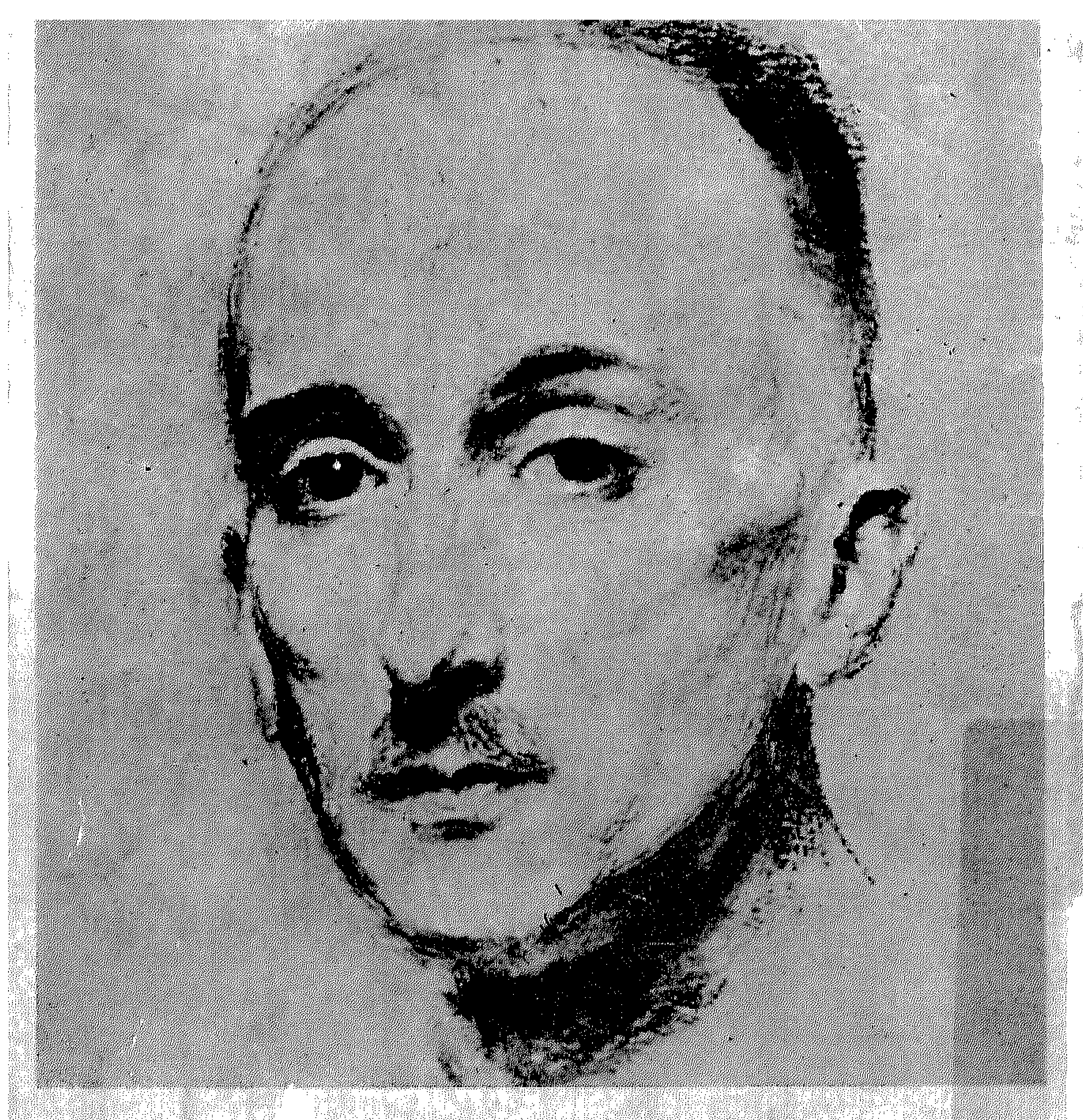
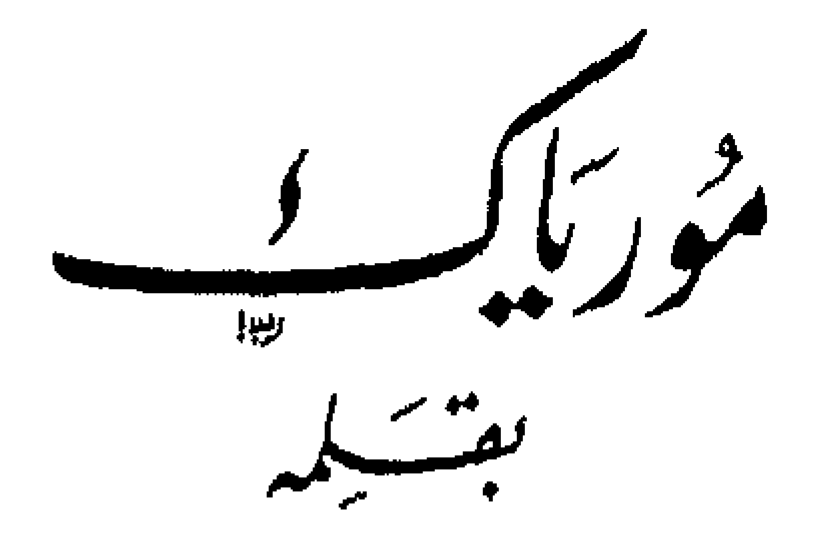


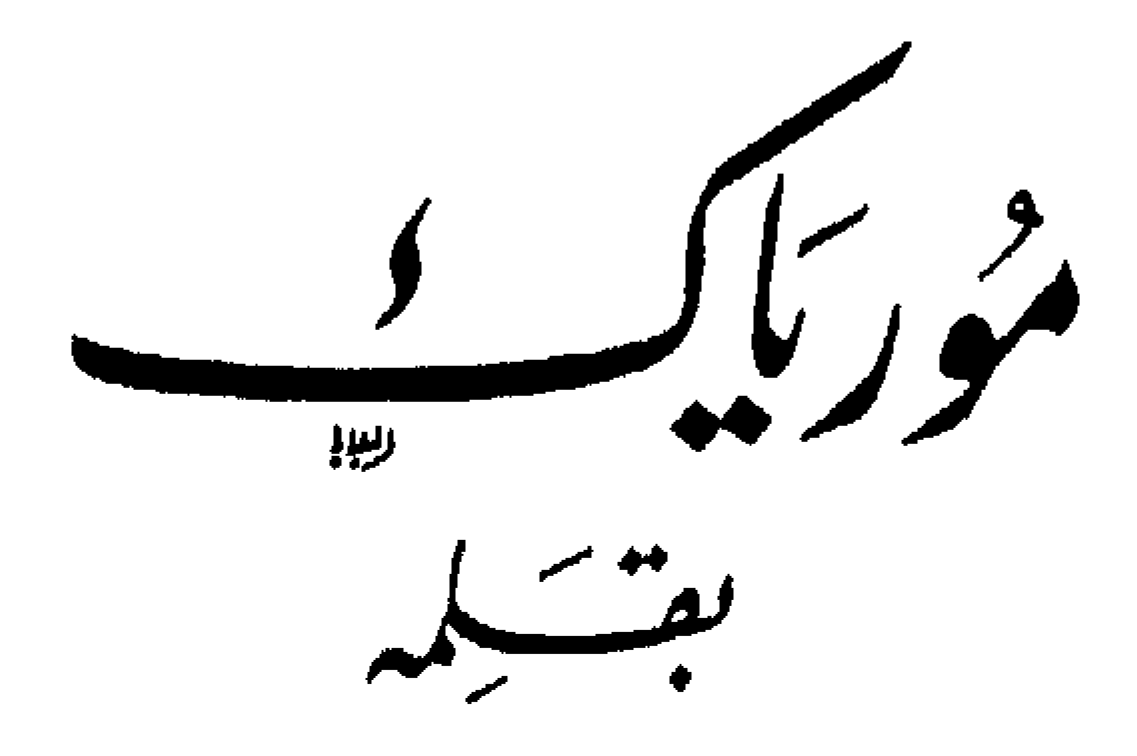


Mauriac par lui même

de

Pierre-Henri Simon

بيار هنري سيمون



ترجمة

الدكتور عفيف دمشقية

المنشورات العربية

مُوريــــاك

لمحة عن حياة مورياك

ولد فرانسوا مورياك في مدينة « بوردو » (١٨٨٥ — ١٩٧٠) . ولم يمض على ولادته عشرون شهراً حتى توفي أبوه ، فربي هو وأخته واخوته الثلاثة (اصبح احدهم ، بيير ، عميد كلية الطب في «بوردو ») في كنف والدتهم تربية محافظة ملؤها الحشمة البرجوازية والتقوى الكاثوليكية . وقد تلقى علومه الاولى عند الاخوة المريميين في « غران لو بران » ، ونال شهادة البكالوريا ثم اجازة في الادب من كلية الآداب في مسقط رأسه . وشدته أواصر صداقة الى « جان دولافيل دوميرمون » ، وبعدها الى « اندريه لافون » ، ثم راح يختلف الى اوساط الطلبة الكاثوليكيين . وحين وصل الى باريس في عام ١٩٠٦ ، تقدم لمباراة الدخول إلى مدرسة « شارت » فنجح فيها . لكنه ما لبث ان قدم استقالته وانصرف الى الكتابة . وقد حظي ديوانه الاول « الايدي المشبّكة » بنجاح عظيم تجلّى في مقال لـ « موريس بارّيس » بجريدة « ايكو دو باري » بتاريخ ٢١ آذار ١٩١٠ ، نوّه فيه به أيّما تنويه . وتزوج في عام ١٩١٣ ، وجنّد خلال الحرب العالمية الاولى ملحقاً بمصلحة الصحة العسكرية ، ولكنه سرعان ما تمكن من العودة إلى الكتابة . وقد سلكته رواية « القبلة الى مجذوم » التي ألّفها عام ١٩٢٢

موريـــاك

في عداد روائيي الجيل الجديد . وجاءت تدعم هذا الحكم جائزة الاكاديمية الاولى للقصة التي نالها عام ١٩٢٥ عن روايته « صحراء الحب » . وفي عام ١٩٣٣ اصبح فرانسوا مورياك عضواً في الاكاديمية الفرنسية ، بعد أن كان قد غدا رئيساً لجمعية « أهل الادب » عام ١٩٣٢ . وفي عام ١٩٣٤ نشر الجزء الاول من « مذكراته » . ولمع في اولى تجاربه في المسرح عام ١٩٣٨ ، حين مثلت « الكوميدي فرانسيز » مسرحيته « اسموديه » . وخلال الاحتلال النازي اسهم في « المقاومة » الفكرية ، فنشرت له دار « مينوي » كتاب « الدفتر الاسود » باسم مستعار هو « فوريز » ، واضطر الى العيش بعض الوقت في الخفاء . وما لبث ان احتل بعد التحرير مركزاً مرموقاً في دنيا الصحافة بفضل مقالاته في جريدة « الفيغارو » . وعلاوة على ذلك أنشأ مجلة « لا تابل روند » وبقي محركها الأول . واخيراً أتته جائزة « نوبل » في الادب ، عام ١٩٥٢ ، مصداقاً لمكانته ككاتب فرنسي كبير وكواحد من عظماء الثقافة الغربية .

مُورِيَــاك

داعب الآن المحيطات الهادئة
يا زمّج للبحر ذا القلب الحكيم
يا من لم تهرب من جسد حزين نهب للخطيئات المحبّبة .

« العاصفة التي سكنت »

قد يسوّغ ما جاء مطابقاً للحق في « التناقض بشأن الممثل » (وهو كتاب لـ « ديدرو ») تناقضاً بشأن الناقد ، اذ لا تتاح للمرء فرصة الكلام بصدق على أحد الكتاب ، إلا اذا هو أبقى بينه وبينه مسافة ما . اما حين يقدّر له البقاء قريباً جداً من مؤلفاته وشعره ، وحين تستطيل الصدمة الجمالية والانفعالية الناجمتان عن قراءة كتبه فتغدوان ارتعاشات شديدة ، فان للناقد يتعرض لخطر زج نصيب كبير من ذاته في مقالته النقدية ، الأمر الذي لا يضر بسير التحليل وحسب ، وانما يجعل ايضاً تكوين الافكار والآراء من الصعوبة بمكان . وعلى هذا لم يتمكن « فاغيه »[1] الطيب ، وقد أحب « راسين » حباً جماً ، ان يلقي درساً جيداً واحداً عنه . كان يتحمس له ، ويتلعثم عند الحديث عنه ، لكنه لم يكن يشرح لطلابه شيئاً ذا بال في موضوعه .

---

١) هو أميل فاغيه ، استاذ وناقد فرنسي (١٨٤٧ – ١٩١٦)، وكان عضواً في الاكاديمية الفرنسية . (المترجم) .

موريــــاك

ولذا اراني ، وانا مضطر الى الكتابة عن مورياك — وهو ما لم افعله حتى الآن إلا على شكل نبذ ومحاولات — امام عقبة من هذا النوع ، سببها علاقة حميمة . علاقة لا مع الرجل الذي لا أعرف عنه الكثير على كل حال (لم أحاول ابداً ان اخترق خط الود الدفاعي ، او اللامبالاة الساخرة ، الذي أقامه باختياره بينه وبين من يصغرونه سناً) ، وانما مع مؤلفاته التي دخلت حياتي الخاصة منذ ثلاثين عاماً ، وبالضبط منذ ظهور «القبلة الى مجذوم»، ولم تنفك تصاحبها الى اليوم . فبلد مورياك يكاد يكون بلدي ، اذ لبلدي كذلك كرومه وخمائله . واليمامات الرحالة التي تحوّم حول صنوبرات «بوريديس» تنام في العشية فوق سنديانات بلدي «سانتونج» . والمحيط الذي ولد فيه ، محيط البرجوازية الريفية المتمسكة بحرفية الكثلكة دون فهم روحها حق الفهم ، هو كذلك محيطي . وموضوع كتاباته — اذ ليس له سوى موضوع واحد ، هو صراع الطبيعة مع «الرحمة» الكامنة في نفس المسيحي ، وتقطع قلبه بين حب الدنيا وحب الله — هو الموضوع الذي يمس شغاف قلبي مساً مباشراً ، ولا اجد ما يفوقه اهمية لدى الروائي . واخيراً فان فنه للذي يجمع بين الغنائية والتحليل ، والقوة والوضوح ، والعنف والايجاز ، في توازن ظن أن سرّه كان قد فقد بفقد «راسين» ، كان يبدو لي دائماً انه الشيء الوحيد الذي يستحق بجدارة صفة كمال الاسلوب . لذا لم اقرأ قط كتاباً لمورياك وانا اشعر بما كنت اشعر به عند قراءة غيره من الكتب . ولا اعني بذلك اني كنت اشعر بالتجرد والانفصال ، بل على للعكس ، كنت اتعلق

بالنص تعلقاً عفوياً وعارماً ، كما لو اني اقرأ كتاباً من تأليفي في قالب أمثل لا أملك موهبة تحقيقه لحسابي الخاص . ويمكنني الاعتراف بأنه شعور يجافي حسن القراءة ، لأنه يهمّ العاطفة اكثر مما يهمّ الاحكام النقدية ، ويطوي القاريءُ على نفسه بدلاً من اكراهه على تبديل آفاق فكره .

كنت في حوالي العشرين حين خرجت الاجزاء الاولى من دار «غراسيه» للنشر ، وخرج معها للحال أول أمجاد فرانسوا مورياك . واعتقد ان تلك الاجزاء كانت أعذبها في قلبه كانسان وفنان ، لأنه لم يكن لها بعد طعم التكريسات الرسمية الذي فيه بعض الجفاف ، وانما لها النضارة والاصالة اللتان يوفرهما رضا الجمهور غير المعروف من الشباب المشغوف . فانا اذن انتسب الى الجيل الذي تلقاه كما يليق بمعلم وقور وحبيب الى النفوس في آن معاً ، بينما كان الجيل السابق ينظر اليه نظرة الندّ المعاصر . ولسوف يراه الجيل التالي متربعاً على عرش شهرة طبّقت الآفاق ، فاما ان يحبوه بذلك الاحترام المفرط الذي لا يقدّم إلا بين ايدي العظام ، وإما ان يدير له ظهره باعتداد لا يطاق ، اعتداد يبديه الشباب لاعتقادهم بأنهم تخطّوا زمن المؤلفات التي لا يقرأونها ، او لأن انعدام ثقافتهم يحول بينهم وبين فهمها . أجل ، اني لأميل الى الظن بأن سحر مورياك ما مسّ سوى اولئك الذين آنخوا ، وهم في العشرين ، اشخاصاً مثل « جان بيلوبير » ، و « بوب لاغاف » ، و « ريمون كوريج » ، وتنسموا من خلال قرائحهم نسائم الصيف الجافة في مؤلفات مثل « نهر النار » و « اقدار » .

مُوريـَـاك

ومع ذلك ، فقد تقدم بنا العمر وانعتق الفكر . وربما كنا غير عاجزين عن التراجع ، او عن رؤية النسَب والحدود ، او عن اجتياز مرحلة الانفعال والتأثر الى مرحلة الشرح والحكم ، امام ذلك الأثر الادبي الذي تعمقت جذوره في نفوس بعضنا ، والذي نكنّ له حباً فيه نصيب من الوفاء لأيام الشباب . ففي السن التي يصبح معها في مقدور المرء ان يحكم على نفسه ، يصبح في مقدوره محاولة الحكم على ما يحب . والحق انني حين يحدث لي اليوم ان اقول « لا » لمورياك ، أو أن ارفض بعض مقومات فنّه الشهيرة ، وبعض النظرات « القَبْلِيّة » في سيكولوجيته ، وطريقة معينة في تصوير المسيحية بأقصى ما في اللاهوت من صرامة للمبادرة في إيجاد توافقات سهلة الى حد ما مع الخلق البورجوازي ، فانما انكر ذاتي ، وانكر الفكر المتجلي في كلاسيكية انطوت في وقت مبكر على كمالها وبديهياتها ، وانكر التراخي في انسانية مسيحية تعقّد حياة الانسان دون ان تختار المسيح بشكل صريح . أجل ، انني حين اشعر اليوم مصادفة بالانفصال عن مورياك ، واصغي الى نداء « برنانوس » ، فانما لأني ، بعد ان ادركت الاخفاق الروحي الذي رافق حقبة من الزمن ، والحدود الضيقة لثقافة معينة ، أتوق اكثر فاكثر للعثور على الروح البطولي في قمة ما هو انساني ، والروح الملحمي في العمل القصصي ، ومأساة القداسة المدوّخة وراء تعقيدات النفس الخاطئة ومهازلها .

مُوريَاك

حرفة عظيمة

كان طريق فرانسوا مورياك الى حرفة الادب اقصر واعظم طريق عرفه واحد من ابناء الجيل الادبي القوي الذي نشأ حوالي عام ١٨٨٥ ، واطلق شبانه قبل الحرب العالمية الاولى ، وفرض نفسه خلال السنوات العشر الباهرة الواقعة بين ١٩٢٠ و ١٩٣٠ ، مقدّماً طليعة أدبية جمعت « روجيه مارتان دوغار » ، و « جورج دو هاميل » ، و « جول رومان » ، و « اندريه موروا » ، و « جان جيرودو » ، و « جان كوكتو » ، و « جاك ريفيير » ، و « لا كروتيل » ، و « شاردون » ، خلا من ماتوا في الحرب ، وهم : « آلان فورنييه » ، و « بسيكاري »، و « اميل كليرمون ». فما ان وصل من غاسكونيا ، وهو في العشرين ، ليتهيأ لدخول مدرسة « شارت » ، حتى أدرك انه لم يخلق ليكون باحثاً متواضعاً ، وانما خلق للسعد الذي ينتظر رجل الادب . وكان أشد الشابين الآتيين من « بوردو » ، واللذين بدأ نجمهما يتألق في باريس قبل عام ١٩١٤ ، اي هو و « جاك ريفيير » ، انطباعاً باقليمه وثقافته . فهو قليل المخالطة للوسط الذي خرجت منه « المجلة الفرنسية الجديدة » ، واكثر تردداً على النوادي الكاثوليكية وصالونات رجال الفكر . وقد تشبث به « لوسيّون »

زمناً ، لكن شهرته تأتت عن طريق رجل كانت كلمته مسموعة اكثر من غيره من اساتذة المدرسة التقليدية ، عنينا به « باريّس » الذي حمل « الايدي المشبّكة » الى عنان السماء في مقال كتبه عام ١٩٠٩ بجريدة « ايكو دو باري » . ولقد وقف موريالك فيما بعد موقفاً عاتياً بلغ حد المغالاة من تلك القصائد التي نظمها في شرخ الشباب . والواقع ان تلك القصائد لا تتسم بالفحولة ، سواء في نظمها او في مضمونها ، ولكن لا بد من الاعجاب بنظرة مؤلف «المجتثين» الثاقبة التي اكتشفت في ذلك الاصيل الرطب الشاحب بوادر فجر رائع . ولقد احب في تلك القصائد ملهمات الدين والاسرة والارض ، الملهمات التي استقى منها « فرنسيس جيمس » شعره الريفي الورع . وتنبأ ذلك الذي كان يدعى « أمير الشباب » لموريالك بمستقبل باهر ، قائلاً له : « هيا ، سيكون طريقك سهلاً ومكللاً بالمجد... » وهكذا كان . ولم يسجل ديوان « وداعاً ايتها المراهقة » سوى تقدم ضئيل على درب التفجع التقي الذي كانت نداءات الجسد الصماء قد اخذت في تعكيره . وحملت « الفتى المثقل بالقيود » (عـام ١٩١٢) ، و « الجبة » (عام ١٩١٣) في ثناياهما الافكار ذاتها ، لكنهما لم تكونا روايتين بقدر ما كانتا من نوع الدراسات الاحادية الموضوع الدائرة حول الازمات النفسية والروحية الاولى التي يعانيها صبي من أسرة طيبة قرأ قصة « رجل حر » ، وقصة « اغذيـة الارض » ، وامتلأت نفسه حماسة عارمة للدراسات الادبية ، دون ان يتمكن بعدُ من بلوغ جمهور يتعدى نفراً ضئيلاً من الرفاق

والفضوليين . واذ كان للكاتب الشاب يشكو في ذلك العهد الضعف، فقد اضطر الى تلبية واجب الحرب داخل احدى المصالح ، مما اتاح له فرصة الانكباب على العمل ، واعفاه من اتخاذ احداث الساعة المأسوية مادة لرواياته . ويتدفق من « اللحم والدم » و « امتيازات الصدارة » (عام ١٩٢٠) نوع من الشجى الداخلي . والروايتان جيدتان . وقد تمكنت ثانيتهما – وهي صورة صارخة للبرجوازية في « بوردو » – ان تشق طريقها الى الجمهور ، ولكن بشيء من الخداع . اذ لم يرَ فيها الا الجانب المرئي من حياة الاقاليم، والا النقد اللاذع للمجتمع ، دون العنصر المورياكي الخاص الذي كان حاضراً فيها مع ذلك ، عنينا الشغف باكتناه اسرار النفوس وحرارة الدخائل . كانت قد دخلت الروايتين جميع مقومات فكر فرانسوا مورياك وفنّه ، ولكنها كانت خفية غير متكاملة البناء . أما العنفوان الحقيقي فلم يتفجّر إلا عام ١٩٢٢ في « القبلة الى مجذوم » التي لم يبق معها من ريب في ان روائياً ضخماً قد وُلد ، وان هذا الروائي يجمع بين العالم النفساني والموسيقي ، وانه لا مراء في ان علمه وموسيقاه من الصدق بحيث يكملان آكد تقاليد الرواية الفرنسية في الوقت الذي يبدوان فيه جديدين كل الجدة . ومنذ ذلك الحين وجمهور كبير بات يرتقب الرواية التي كان فرانسوا مورياك يصدرها كل سنة تقريباً . وكان ذلك الجمهور يتزايد باطراد وتشتد حماسته للمؤلف . فهو معجب بما في « نهر الرماد » (١٩٢٢) من عنف كدر ، وما في « جينتريكس » (١٩٢٣) و « طعنات

السكاكين » (١٩٢٦) من فظاظة ، وبالجو الملتهب في « صحراء الحب » (١٩٢٥) و « أقدار » (١٩٢٧) ، وبالغضبات الراسينية في « تيريز ديكريو » (١٩٢٦) ، وبذلك الغيهب من الشهوات الانسانية الذي بدده فانوس حب المسيح المهيمن على « ما كان قد فقد » (١٩٢٩) و « عقدة الافاعي » (١٩٣٢) . ولا ريب ان الرواية الاخيرة تمثل قمة الفن المورياكي التي لم يتعدها أحد بعد، الى جانب رواية « سر فرونتناك » (١٩٣٣) التي تعتبر عذوبة الهوى فيها جواباً واصلاحاً للرسم البشع الذي يمثل عائلة برجوازية مسيحية . اما « نهاية الليل » (١٩٣٥) ، و « الملائكة السود » (١٩٣٦) ، و « غطسات » (١٩٣٨) ، و « دروب البحر » (١٩٣٩) ، و « الفرّيسيّة » (١٩٤١) ، فموءلفات استاذ ليس في إمكانه التنازل عن مستواه ، ولا تعدّي ذاته ، ولا الابتعاد بعد عن طريقه . فهل يكون قلق مورياك الخفي من ألا يبقى امامه سوى اجترار نفسه هو الذي دفعه الى تغيير نوع كتاباته على الاقل؟ لقد سجلت مسرحية « اسموديه » التي مثّلت عام ١٩٣٨ على خشبة « الكوميدي فرانسيز » بداية جيدة ، فكان ان تلتها « المفتقرون الى الحب » (١٩٤٥) ، و « مرور الخبيث » (١٩٤٨) ، و « النار على الارض » (١٩٥١) . ثم عاد الروائي الى الظهور بعد فترة ناهزت عشر سنوات في أقصوصة « القذر » (١٩٥١) ، وهي رائعة من روائع الادب الكئيب ، وقصة قصيرة هي « غاليفاي » (١٩٥٢) التي دفعت به الى شفا اللاواقع والمحال .

ومع ذلك فقد بكّرت شخصية مورياك كثيراً في اجتذاب الانظار، وما كان بوسعها ان تفضي بجميع ما عندها في مؤلفات من نسج الخيال . وها هي ذي تتجلى بوضوح في اعمال نقدية من مثل « كربة جاك ريفيير » (١٩٢٦) ، و « حياة جان راسين » (١٩٢٨) ، و « ثلاثة عظماء امام الله » (١٩٣٠) ، و « بليز بسكال واخته جاكلين » (١٩٣١) ، و « من ناحية بيت بروست » (١٩٤٧) ، وخصوصاً في آثار يحلل فيها الكاتب مباشرة أزمة وجدانه الخلقي والديني ، من مثل « الله ومامون »[1] (١٩٢٩) ، و «آلام المسيحي وسعادته » (١٩٣١) ، و « حجر العثرة » (١٩٥١) . وقد اغتذت من دخيلته واعماق ذاكرته كتب صغيرة شديدة الوطأة تحمل عناوين: « بلاد الاقاليم » (١٩٢٦) ، و « الشابّ » (١٩٢٦) ، و « خميس العهد » (١٩٣١) ، و « بدايات حياة » (١٩٣٢) ، ودراسات تاريخية دينية مثل « حياة يسوع » (١٩٣٦) ، و « القديسة مرغريت دو كورتون » (١٩٤٥) ؛ وكذلك تأملات ذكية حول تقنية فنه والغرض منه في « الرواية » (١٩٢٨) ، و « الروائي وابطاله » (١٩٣٣) . وعلى الرغم من تستّره باحتشام خلف هذه الانصاب النثرية ، لم يعدل الشاعر عن الهمس بنشيده . فهذا ديوان «عواصف» (١٩٢٥) يتكشّف عن مهارة متحفظة في نظم الشعر لم تسمح ببروزها تماماً دواوين الشباب الاوّل . كما بدا ان قصيدة « دم

(١) احد الاثرياء المذكورين في التوراة . وقد اصبح اسمه رمزاً لشهوة جمع المال . (المترجم) .

مُوريــــاك

آتيس »[1] التي انضجتها سنون طوال فتفتحت اكمامها عام ١٩٤٠، تجمع بقوة بين الخيال الصوفي في « الصنتور » ، والحسيّة الشديدة في « پارك الشابّة » .

قد يتساءل المرء احياناً كيف كان في وسع فرانسوا مورياك ان يتحمل ألم البقاء مغموراً ، وان ينزف ويتألم داخل حلقة من اللامبالاة والوحدة ، لو لم يبتسم له الحظ على الفور وبصورة مستمرة .. فهو لم يتمالك نفسه في أمسية افتتاح احدى مسرحياته التي وقف منها الجمهور والنقاد موقفاً صارماً بغير حق ، ان يقول متهالكاً وكأنه احد المبتدئين : «لم اخلق للاخفاق ! » . وما اظن انها كانت صيحة صادرة عن غرور ساذج . انه بحاجة الى ان يحس من حوله دفء الاستلطاف ، وان يرى آلاف الابصار المتعطشة مصوبة الى مسرحيته ، مفعمة بنظرته هو الى العالم . انه ، بل هو محتاج الى ان يكون ، كما قال في حق « اندريه جيد » : « انسان يمنح ذاته (للناس)[2] » . وقد تمكن الروائي بسحر فنه أن يغزو جمهوره ويقوده ويزيد عدد افراده . لكنه كان يطمح إلى ان يتزايد افراد جمهوره ، وان يمتلكهم ويضمن وفاءهم وثباتهم عن طريق الخطاب

---

(١) « آتيس » احد أبطال الاساطير اليونانية القديمة كان راعياً فأحبته « سيبيل » بنت السماء والهة الارض والحيوان وزوجة زحل وأم الكواكب التي تجسد القوى الطبيعية . وإذ لم يستجب لحبها حولته الى صنوبرة . (المترجم)

(٢) زيادة نراها ضرورية للسياق العربي . (المترجم) .

المباشر ، والحوار لليومي ، فأغرته للصحافة ونجح فيها كذلك نجاحاً باهراً .

إن أجزاء « مذكراته » الاربعة التي طبعت بين ١٩٣٤ و ١٩٥٠ لا تستحق عنوانها اذا اخذ في الاعتبار مذكرات « آمييل » او « بنجمان كونستان » ، لأنها لا تنضوي تحت لواء السيرة الذاتية او الأخبار والنوادر ، وانما تحت لواء الصحافة لما تحفل به من مقالات وعجالات مستوحاة من الأحداث اليومية . ولم يكن فرانسوا مورياك الذي برّز قبل عام ١٩٣٩ في جريدة « ايكو دو باري » ، و « ست » ، و « تان بريزان » ، وفي « الفيغارو » بعد الحرب ، بالكاتب الذي يمر الناس مرور الكرام بما يكتب . بل كان صحافياً من الطراز الأول ، يستجيب لداعي رسالة يؤمن بها . كما انه لم يكن يسعى الى كبح جماح عواطفه أو عزة نفسه التي تأبى الضيم ، لايوم كان محرراً يقظاً للاخبار اليومية ، ولا حين كان يتصدى للآخرين ويقارعهم الحجة في عزم . وعلى العموم فقد كان اكثر ارتياحاً في مجال الهجو والسخرية ، منه في مجال التعليق والتحليل . وكان من الاعتزاز والاباء بحيث يعجز عن الخضوع لشعار اي حزب . ولسنا نغالي اذا قلنا بانه بدلاً من ان يكبح ما يجيش في نفسه الكبيرة ، كان يعمل على اذكائه وإلهابه ، لأنه كان يعتبر ذلك الجيشان شرطاً من شروط موهبته . ولكن ، كيف تراه سيرضي جميع الناس ؟ لقد وفّق بعضهم الى ان يأخذ على الكاتب البرجوازي الذي ازعجته آراء الشبان المسيحيين الثائرة ، نزعته الى التقيد بالاعراف .

(لكن اليس الاحرى اعتبار هذه النزعة عند مؤلف « امتيازات الصدارة » و « عقدة الافاعي » نوعاً من الاحتراس النفور الذي يشعر به الكبير إزاء من يصغرونه سناً ، وهو يراهم يتقدمون بسرعة فائقة ، او يقطعون اشواطاً بعيدة ، في اتجاه لم يكن هو آخر من دلّهم عليه ؟) وعلى النقيض من ذلك ، طعن آخرون على صديق الكاثوليكيين الباسكيين انخراطه في جبهة مع « برنانوس » وعدد من المسيحيين يقال انهم « يساريون » لمناهضة ما كان يرتكبه فرنكو في اسبانيا من جرائم بشعة . وها هوذا محرر « الفيغارو » اليوم يؤكد حرصه على مناهضة الشيوعية* ، وثقته في السياسة الاطلنطية ، مع أنهما كلتاهما تضعانه مجدداً في مصاف الميليشيا المحافظة ، شاء ذلك أو أبى . ومع ذلك ، لم تمنعه مواقفه المتحيّزة من ان يحكم بحرية على بعض الاخطاء الاميركية ، وان يثور عليها كما ينبغي ان تكون الثورة . وبعد ، فما هم ؟ اذ كيفما قدّرت مواقف مورياك للسياسة المتتابعة ، فانه لا يمكن مس نشاطه واستقامته وجرأته التي تبوّئه احد مراكز الصدارة في دنيا الصحافة الفرنسية .

---

* مناهضة الشيوعية ؟ كلا . مناهضة الستالينية ؟ أجل . ان وقوفي في وجه ستالين صادر من المصدر الذي يصدر عنه وقوفي في وجه هتلر . واذا حدث ان باتت الدولة الفرنسية دولة بوليسية ، كما كانت في عهد « فيشي » ، او كما هي الحال اليوم في شمال افريقيا ، فلسوف أرفضها كما رفضت دولة فرنكو . وليس اليمين المتطرف ، ولا اليسار المتطرف ، على خطأ حين ينظران إلي نظرتهم الى عدو ، ولسوف يبقى موقفي السياسي واحداً ، مهما يقل فيه .

مُوريَــاك

ما كان لحرفة في مثل هذا التألق ، ولا لنشاط فكري وأدبي في مثل هذا الاتساع ، الا يحظيا بلفتات تكريمية رسمية . فقد كان ان نال مورياك الجائزة الكبرى للقصة عام ١٩٢٥ ، وعقدت له رئاسة « جمعية أهل الادب » عام ١٩٣٢ ، وانتخب عضواً في الاكاديمية الفرنسية عام ١٩٣٣ . ولم يكن ينقصه إلا أن يغزو الرأي العام الاجنبي . وقد استغرق ذلك بعض الوقت ، لان الرواية المورياكية ، شأنها شأن المأساة الراسينية ، تعبر عن الحقيقة العامة بشكل فيه كثير من الخصوصية واللون المحلي الفرنسي ، وهي لا تفلح بالتالي في التأثير تأثيراً مباشراً في الهواة الناشئين في ظل ثقافة اخرى ، بل ربما أدت الى بلبلة أذهانهم . وبعد مدة من الاستعصاء لم يكن عنها محيد ، جاء الفوز . وكان ، على ما يبدو ، اسرع ما يكون في مجال المسرح . فقد مثّلت « اسموديه » في كل مكان ، في اميركا الجنوبية وايطاليا وسويسرا والنمسا . ثم ما لبثت روايات مورياك التي مهّد لها « غراهام غرين » السبيل ، أن غزت العالم الانغلوسكسوني . وما هي إلا شهور حتى جاءت جائزة نوبل في الادب تطبع بطابع التكريم العالمي مؤلفات يندر أن يكتب الخلود لمثيلاتها في مثل هذا الزمان . ترى ، لماذا يقال دائماً ان الاحكام الاكاديمية تتولّد من العرف والظروف ؟ لقد كان الحكم الصادر عن استوكهولم معللاً تعليلاً لافتاً للنظر . فمورياك يكافأ « على تحليله النافذ للنفس ، وعلى قوة الفن التي عبّر بها عن الحياة الانسانية في إطار البناء الروائي » . لقد قيل كل شيء في كلمات قليلة ، ولن يكون في

وسع الاجيال الطالعة إلا ان تؤكد هذا الثناء باعترافها للرواية المورياكية بطوابع الشموخ الثلاثة : فهي موجهة نحو معرفة الحياة ، وقد جاست بعمق خلال قلب الانسان ، ثم انها تتصف في جلاء بقوة الشعور وامتداد الهزة العاطفية اللذين يقرّبانها من الشعر .

مُوريـــاك

رجل شاغله الصدق

لم تكن الجنيّة المتحكمة بالحظوظ الادبية غائبة عن حفلة تعميد فرانسوا مورياك . فهو لم ينفك يستمد من العمل الادبي الذي كان يغذّيه بأخفى مزعجات نفسه ، مسرات الفنان والمنافع الدنيوية التي كانت تشحذ بدورها تلك المزعجات . وكان إغراء التسلية ، واستخدام الخيرات المزيفة استخداماً يجمع بين الاجرام والعذوبة ، يتعهدان صراعه الملهم ، ويعملان على جعل منابع فنه المأسوي اكثر غزارة. وهما يقتربان من نفسه التي تستبد بها فكرة الاكتفاء بما هو ضروري لسد الرمق . ثم ان الطاف « مامون » لم تكن يوماً كريهة ، حتى ولا بالنسبة الى ابناء الرب . وانه لمما يدعو الى الاعجاب ، أن هذا المسيحي الذي اغدقت عليه الدنيا خيراتها ، كان يتمتع بتلك الخيرات في تواضع ، ومن غير ان يسمح لها بالاضرار به ، بعيداً عن تبجح الشهرة والنجاح الذي يزعج احياناً ويصدم عند « كلوديل » .

والرجل يفيض بالسحر ، فهو طويل القامة ، نحيل العود ، عصبي المزاج ، يتوّج جسمه الضعيف ذلك الوجه الذي قال فيه « دوهاميل » :

مُوريـــاك

« انه ليسر « غريكو »[1] ان يرسمه في اوقات فراغه في عالم الخلود . » فجانب ذلك الوجه الضامر الشبيه بوجه ناسك ، وجبين المفكّر العريض ، ووضع الرأس الموحي بطبيعته بأن صاحبه ينظر الى الناس من علٍ ، وهو اقل تدبراً وتصنّعاً من تصعيرة « باريّس » الشهيرة ، كل ذلك يضفي عليه نبالة لم يزدها تقدم السنّ إلا تألقاً . انه لم يكن يتصنّع في مشيته أو في اثناء حديثه ، ولا كان يتظاهر بالجلال . لكنه كان يتمتع باستعداد للذع ، وموهبة فائقة في استخدام الكلمة التي تخمش أو تنفذ كالطعنة ، وهي تخرج من فم رقيق يكاد لا يكون متناسباً . ونحول عنقه يجعل صوته أجشّ خافتاً ، ويضفي على نبرته ما تضفيه صورة التلطيف البلاغية على الاسلوب الانشائي . انه يضيف شيئاً من السرية الى النجوى ، ويزيد الفكرة دقة ونفاذها حدّة . واذا نظر مورياك الى الانسان نظرة صارمة متشائمة ، فانه من جهة اخرى مسيحي مخلص يلزم نفسه بممارسة المحبة ، حتى ليخيل انه يقف باستمرار موقف الحذر من فكره ، وانه يتمنى ، شأن النابل المتردد ، لو يرجع اليه ما لم يمر على اطلاقه من نبال ذلك الفكر سوى لحظات . ولكنه قد يكون اقل تسامحاً مع نفسه لو أنه لم يدع تلك النبال تنطلق . ولا يملك المرء إلا ان

---

(١) رسام من أصل يوناني (حوالي ١٥٤١ – ١٦١٤) عمل اكثر ما عمل في اسبانيا . وتمتاز لوحاته بواقعية صوفية وألوان متقشفة . ومن أشهرها « تعذيب القديس موريس » (المترجم) .

مُوريـــاك

يتساءل عما اذا كانت الجنة المسيحية تتراءى له مشتهاة* — هو التقي غير المتزمت ، النازع بالاحرى الى السخرية والزهو بذكاء ثاقب متبصّر — دون أمل بأن يلتقي فيها بـ « بسكال » و « راسين » للتعويض على مؤلفي الكاهن « بيتلهم » الطيبين .

قيل انه كان مقدّراً لفرانسوا مورياك ان يكون صادقاً ، وهذا صحيح . فهو لم يبدع — وقد ولد في مدينة « بوردو » برجوازياً كاثوليكياً — شيئاً جميلاً حقاً ، قيّماً حقاً ، إلا وكان امتداداً للحقائق التي رافقت مولده . إن جذور شعره راسخة في ارضه ، وحكمة محيطه تدعم نهجه السياسي . وقد كان من الممكن ان تكون فلسفته ضحلة لو لم يقرأ كتاب التعاليم المسيحية . ومع ذلك ، فمن غير الممكن فهم الغنى الذي تتميز به فطرته ، ولا فهم مأساة وجدانه ، ولا فهم اعماله الادبية ، اذا غاب عن البال ان صدقه كان في حالة تمزّق مستمر . وبرز ذلك البرجوازي المولود في « بوردو »

---

* « اني أومن بالحياة الابدية ، لكنني لم أتصور قط « الفردوس المسيحي » بصحبة الناس الشرفاء ، ولا راودني ابداً ان في مقدوري ان اتعرف شخصياً في السماء على « بسكال » ، أو « راسين » أو « موزار » ، أو « موريس دو غيران » . إني لا اومن بـ « الشانز يليزيه » . وامتلاكي، خارج المكان والزمان ، لهذا الحب الذي اومن به اكثر من ايماني بحياتي ذاتها ، لا يمكن تصوره بكل حرفية الكلمة ، فهو يخفى على كل حياة انسانية ، وعلى كل محاولة تقريبية . انه ينبغي ان ينزع اليه ، ولكن لا ينبغي التحدث عنه . »

مُوريـــاك

اكثر ما برز حين كتب « امتيازات الصدارة » . ثم ان جميع اعماله الروائية والمسرحية تبدو وكأنها تحليل نفساني قاس لكل ما في النفس البرجوازية من فراغ ورذائل . لقد استنشق في بيته صبياً هواء المحافظة الورعة الخالي من كل لذّة ، ثم ما لبث ان وجد ذاته أسير الفكر المهيمن على حركة الـ « اكسيون فرانسيز » . ولم يمنعه هذا من ان يبدي ، وقد غدا شاباً ، اهتماماً بحركة « لوسيّون » ، وان يعترف ، بعد ان نضج ، بميله الى حركة الديمقراطيين المسيحيين ، وان يعلن حرباً شعواء على ديكتاتورية المفكرين البارزين في عهد « فيشي » ، وأن يكون مؤلف « الدفتر الاسود » الشجاع الى حد التهوّر .

اما المأساة الكبرى في قلب مؤلفاته ، مأساة صراع الطبيعة والرحمة ، فيحسها الانسان في صميم حياته هو . لقد تفتح مزاجه العاطفي على هواه ، في نزعة متأنّقة الى الاقبال على الملذّات ، بل في نشوة نيتشوية بالتمتع والخيلاء . ولكن قمع هذا ووجّهه نحو محبة الرب قوة غامضة ، واختيار خارق للعادة في نطاق الايمان ، واندفاع غير قابل للاحتباس بفعل وراثة وتربية دينيتين داخل إطار العقل . لقد وجد ذلك الرجل الثري المسيح . وعلى الرغم مما يملك من خيرات ، حاول اللحاق به . وبدت له المسيرة شاقّة ، ومرت به لحظات من الشك ونفاد الصبر . وخرج كتابه « آلام المسيحي » من تحت ريشته متميزاً بنبرة أقوى واكثر عفوية من تلك التي في كتابه الآخر « سعادة المسيحي » . ولم يحمل كتابه « حجر العثرة » الى الكنيسة سوى قربان « اجلال

ساخط » . ومع ذلك ، فقد تقدم على طريق النسك والتصوّف ، ولم يصرفه عنها في أي حال ، لا صعوبة كتابة الروايات عندما يكون المرء كاثوليكياً ، ولا حرفة ارضاء اربعمائة الف قاريءْ لصحيفة. برجوازية كبرى تهتم بشؤون الحياة والمجتمع .

هل ينبغي الظن بأنه لو تخلص موriاك من مسيحيته لكان ابسط وأقل توتراً واشد سعادة بعد إجراء كل حساب ؟ ليس في وسع احد أن يقول بذلك ، حتى ولا هو نفسه . لكن الثابت انه لو فعل لاختفت من حياته حالة التوتّر التي خلقت عظمة شخصيته ، وقوة ابداعه ، وتموّج أسلوبه . ويمكن الافتراض بأن راحة بهذا الثمن ، ما كانت لتهمّه كثيراً .

اجل ، لقد خلق للقلق ، وبالقلق بات لصدقه معنى . وهنا يكمن ما في فكره وعمله معاً مما لا يمكن وصفه من تردد وتشبث ودفع . انه يدعو البرجوازيين الشباب الى وعي ماديّة محيطهم . لكنهم ما ان ينتشوا مجلتهم « أسبري » ، ويندفعوا في الطريق التي ارادها لهم ، حتى يلهبهم بسياطه ، ويرهقهم بحجج يستمدها من « بورجيه » . وبعد كل هذا تراه يغمزهم غمزة المتواطيءْ معهم ، ويتحدث عن آثار « مونييه » بشكل نبيل مشرف . وفي عالم المناظرات ، لم تكن له هجمات « برنانوس » العنيفة الظالمة ، ولا لذعاته الخشنة ، بل هو يملك ، كالاطباء الصينيين الذين يستعيضون عن البنج بغرز الإبر في المراكز العصبية ، فنّ مسّ الخصم في نقطة الالم . ثم انه

لا يلبث ان يتراجع ويعتذر ، خشية ان يكون قد قسا كثيراً . فهو ، وان لم تكن خطوته الاولى موفقة دائماً ، كان ضميره نبيلاً ونياته حسنة مستقيمة .

واعلم ان فرانسوا مورياك ، كما هو في شموخه وعظمته ، صادق متعلق بما يحتاج اليه الانسان من حقائق ، لكنه قلق وحريص على أن يقضي في نفسه وخارجها على كل ما من شأنه تزييف تلك الحقائق ، وتعقيمها ، وتجفيفها ، كالافكار المسبّقة ، والرتابات ، والاوهام ، وذلك النمط من الكذب الذي يخشاه ويدعوه « الكذب داخل الحقيقة ». ان لهذا الرجل الحق في ان يفكر ، على غرار « ايف فرونتناك » ، بأن « قدر الكثيرين يمكن ان يكون مختلفاً على الارض عما هو في السماء ، لو لم يكتب لهم قط ان يولدوا » .

مُورياك

الكاتب، او الفن بوصفه تعبيراً عن الخبايا

فرض فرانسوا مورياك نفسه منذ البداية بنوعية نثره التي لا مراء فيها . انه نثر عذب الالفاظ والتوقيع ، يذكر بنثر « شاتوبريان » و « فلوبير » ، لكنه نقي من شوائب الايقاع الخطابي بفضل مؤثرات اكثر حداثة وعلمية . فالجملة القصيرة القاطعة تهوي من قمتها . وهي ، بوضوحها الذي لا يدفع ، تتناغم مع الحان « جيد » الكلاسيكية ؛ وبتماوجها المدروس في دقة وعناية ، وتنافر الفاظها الخفيف ، وتنوع ازمنة الافعال فيها ، ونقل الظروف والنعوت المتعمّد من امكنتها المعتادة ، تغدو في بعض الاحيان امتداداً للاصداء المعروفة في انشاء « باريّس » . لقد تركت المقاطع الغنائية في « الاغذية الارضية » ، والتأنّق الجاف في « رجل حر » ، وحتّى ما هو مصطنع وفاتر في كتابات « فرنسيس جيمس » ، آثاراً غير سارة في المؤلفات التي كتبها مورياك في شبابه الاول . لكنه كان يتأثر على الاجمال باساتذة هم اقدم في الزمن ، واكثر إيحاء بالثقة ، من امثال « بسكال » الذي علمه الايجاز والدقة في التعبير ، و « راسين » للذي لقّنه كيف يصهر صهراً جيداً المحسوس والمجرد ، ويغلّف حرارة الغنائية بالنبرة الخطابية

الصرف . اما عندياته فتتمثل في حدّة الانفعال التي تتفجّر بشكل طلقات ، لا بشكل انتشارات ، وبفعل مناخ من الصواعق والحمى والارتعاش المتواصل ، بفعل « تلك الشخصية العريقة الاصل المنزعجة » كما قال بحق « رامون فرنانديز » .

اما الديباجة المورياكية فنسجتها حسيّة فضفاضة عميقة جلت للمؤلف حقيقة العالم الخارجي المحسوسة ، وجعلته يعي بحدّة حياته الجسدية . فمورياك ، شأنه شأن « كوليت » التي يقاربها على الصعيد الجمالي ، رغم البون الشاسع بين عالميهما على الصعيد الاخلاقي ، يتمتع بحسيّة للطبيعة اكثر مما يتمتع بالحس العاطفي نحوها . ان احساسه بها ليس من نوع الميل الرومنطيقي الى العزلة التي توفر الزخرف والعزاء، وانما هو قدرة على الاتصال الجسدي بالارض والهواء والسماء . فما من شيء يخفى على بصره أو سمعه . وها هو يقول مثلاً : « كان ضياء الساعة الرابعة يداعب للحظة جذوع الصنوبرات ولحاءها اللماع كالخزف . وكانت جراحها اللزجة تقبض على الشمس الغاربة . وفجأة انطفأ كل شيء ، وشرعت الريح الهابّة من الغرب تدافع الغيوم الكثيفة التي كانت تلامس قمم الاشجار وتنتزع منها أنّة طويلة » . وكثيراً ما تتدخل حاسة الشمّ واللمس لتنقل الى القارئ الاحساس بوجود الاشياء ، فيبرز فجأة مشهد كامل لغابة تحت وطأة حر الصيف ، في رائحة رماد محترق ، او في دغدغة خشنة للحاء صنوبرة . وجملة من سطر واحد ، يزاوج فيها الكاتب بين صوت برميل يدحرج ، والرائحة المنبعثة من ثمار القطاف ، كفيلة بأن تعيد صورة الخريف

الى الاذهان . وهناك احياناً انطباعات اكثر ندرة تختلط فيها كل الاحاسيس ، وتنبض من خلالها حياة الكائن الغائص في الكون . فها هوذا يقول : « احست « كلود » في دخيلتها بلذّة كتلك التي تحسّ بها الارض المحروثة جيداً حين ينفذ اليها الماء . » وكذلك : « كان انتظار عاصف يقبّض الريف . » وكذلك : « كانا يشعران بالحديقة السوداء فوق خدودهما وعيونهما وكأنها مشفر مبلل دافئ » .

وفي هذه الأمثلة الاخيرة ترى الحس يستدعي الصورة كما يحدث في كثير من الاحيان . والصورة المورياكية غنية وجريئة ، بل هي فظّة احياناً ، مما قد يكون سهل المنال . لكن ما ليس سهلاً فهو السعي الى التركيز والتكثيف والحدة ، والعثور عليها جميعاً ، ثم ان يفضّل الكاتب في العادة الاستعارة الضمنية على التشبيه المركب . فمغنيات « بوريديس » الشوابّ يستدعين الى خاطر شاعر الريف في مقاطعة الاراضي البراح (ليه لاند) صورة بعض الطيور الدواجن . لكنه يتحفظ في البوح بذلك ، ويكتفي بأن يكتب انهن كن مجتمعات « حول الارغن كما لو أنهن حول فسقية ، وقد انتفخت حناجرهن وكأنها ممتلئة بالزؤان والذرة ... » وأخيراً فان الصورة لا تأتي غالباً في رواياته التي تصور الحياة الداخلية ، لتنميق الاسلوب او لمجاراة فكرة ، بقدر ما تأتي لذاتها ، ولتوكيد الوجود الثقيل والاساسي والضروري للعالم الخارجي . انها احساس له نصيبه في حال من احوال النفس الانسانية . واذا كانت عرفاً بعيدة عن ان تكون شاعرية ، فانها شاعرية على صعيد الواقع بوصفها رمزاً لحقيقة أُصيبت كبدها . وقد يكون

ذلك من خلال ما هو مبتذل ، وما يقزز النفس ، اذا هما اضفيا على الانطباع مذاقه الخاص ، كما هي الحال بالنسبة الى الآنسات « كسروج » الثلاث اللواتي هن « ثلاث شقراوات بدينات تسبب لهن غزارة الشعر الصداع » ، واللواتي لا يستطيع « ريمون كوريج » ان ينظر اليهن من خلال كرهه ، إلا على أنهن كتلة واحدة ، أو « نوع من مخلوق بشع سمين ذي ثلاث غرر ، دائم العرق والنقيق تحت الاشجار الساكنة في أصائل شهر آب . »

ويحدث احياناً ان تكون العلاقات محتملة بين تسجيل مشهد من مشاهد العالم الخارجي والشهوات التي تحرّك ابطال الرواية ، فيتقارب عنصرا الوجدان عرضاً في اثناء السرد ، كما يمكن ان يتقاربا في عالم الوجود . وهكذا يحدث في « صحراء الحب » ان يلتقي الدكتور « كوريج » وهو في طريقه الى « ماريا كرو » موكباً من مصارعي الثيران يجوس خلال شوارع « بوردو » ، فتتحدد الصورة في الحال : « ظهر عدد من مصارعي الثيران ذوي الامزجة الحادة برفقة معاونيهم في عربات قديمة من العهد الفيكتوري يقودها حوذيون قذرون متفاخرون . وعجب الطبيب اذ لم يتمكن من ان يلمح على وجوههم الصارمة شيئاً من الحسة . يا له من اكليروس عجيب في ارديته الحمراء المقصبة بالذهب ، والبنفسجية المقلمة بالفضة ! ومرة ثانية حجبت احدى الغيوم النور ، فرفعوا وجوههم المهزولة نحو الافق الباهت . واخترق الطبيب جمع المتجمهرين وراح يسير في الشوارع المقفرة ... »

واكثر من ذلك ، يعمد مورياك الى معطيات حواسه والى المعرفة بالامور ، وبخاصة امور الريف ، فيسألها عقد مشابهات لالقاء الضوء على هذه الثنية من ثنايا القلب ، او لتجسيد ذلك التركيب الفكري او العاطفي ، وهي طريقة اكثر لطافة لربط العالم المادي بالعالم المعنوي. ان سليل عرق اشتهر بالصيد ، هو وحده القادر على التعبير بالكتابة عن حالة الاضطراب المفاجئ الذي استولى على احد النسوة لمصيبة ألمّت بها . انه يقول : « لقد زاغت كما يفعل الحجل الجريح . » وزارع الكرمة في منطقة « جيروند » ، هو وحده القادر ، وقد حدّق في قلق الى نذر العاصفة في سماء صيفية ، على إيجاد الصورة التالية للتعبير عن نذر الكهولة المصلتة فوق براءة الطفولة : « صبيحات شدة الزرقة ! انه دليل على رداءة الجو عند الاصيل وفي المساء . انها لتنذر بخراب كل ما على الارض ، وبكسر الاغصان ، وبكل هذا الوحل ... » ثم اليك هذه الكلمات لاثارة ذكريات حياة زوجية خالية من الحب : « واذ كنا امام مشهد غارق بالامطار ، نتصور ما يكون عليه والشمس تغمره ، اكتشفت « تيريز » لذّة الشهوة » . انها لعمري وسيلة من الوسائل الموقوفة على الشعر خاصة ، يستخدمها مورياك باستمرار وفي غبطة .

لكنه اجترح معجزة أندر وأشد دلالة . انه يرى بين الشيء الموصوف والحالة النفسانية اكثر من علاقة مشابهة ، يرى بينهما رباطاً ضرورياً وتعاوناً حيوياً . وعلى هذا النمط يجمع بين الحادثة واطارها الخارجي ، بين المناخ المادي والجو المعنوي ، فيفسر كل منهما الآخر في تكامل

هو ، في آن معاً ، نفساني عميق وشعري حادّ . ولا يمكن اعتبار اي خصيصة من خصائص الاسلوب المورياكي اكثر لفتاً للنظر ، ولا اشد إيضاحاً لقصد الفنان الاساسي من التي ذكرناها اعلاه . فالقضية ليست قضية استعارة ، وانما قضية مشاركة حميمة مقترحة بين مجال الروح ومجال الجسد . لقد لوحظ بحق ان كل رواية من الروايات يمكن ان يكون لها عنوان تحت عنوانها العام ، يحددها في الزمان والمكان : « القبلة الى مجذوم » ، أو « الصيف في مقاطعة الاراضي البراح » . و « صحراء الحب » أو « تالانس تحت الشمس » . و « أقدار » أو « الشمس تغمر الكروم » . و « تيريز ديكيرو » أو « ارجلوز مغمورة بالمطر » . وليس هذا تصنعاً ادبياً ، بل مطلب ملح لفن يميل دوماً الى بلوغ النفس من خلال الحس ، لأنه فن يطمح الى ابراز مأساة الروح المتجسدة . وقد عرّف مورياك بنفسه جيداً حين قال انه « ما ورائي يعمل في عالم المحسوس » . ومؤلفاته تقف بالفعل وراء المثالية التي تفترض الانسان المغمى عليه ، البعيد عن عالمه الداخلي ، وكذلك وراء الواقعية التي تظهره مستغرقاً بالاشياء معنّى بها . ان انسان مورياك يملك روحاً في جسد ، او هو بالاحرى يحمل جسده في روحه . ومن هنا كان تذكيره بالاشياء التي تحيط به وتهصره ، سبيلاً من السبل الضرورية لبلوغ ذاته في اخص دخائلها . « لا يمكنني تصور رواية دون ان يتمثّل في ذهني المنزل الذي كان مسرحاً لحوادثها بأدق زواياه وخفاياه . انه ينبغي ان تكون أخفى دروب الحديقة وممراتها مألوفة لدي ، وان اكون عارفاً معرفة تامة لاسطحية بالبلد الذي يقوم فيه ذلك المنزل ... »

والامثلة عديدة عن تلك المشاهد المباغتة التي يقدمها الينا ، لا على سبيل التناغم الشعري مع الشهوات التي يحللها ، وانما للعلاقة السببية التي تربط بين تلك المشاهد وهذه الشهوات . ولعل أبلغ مثال عليها في رواية « سعادة المسيحي » ، استحضار صورة وادي نهر «الغارون» الذي خدّره الربيع وايقظته صلوات البشارة في الابرشيات . انها ليست من الصور البيانية ، وانما هي ضرورة تستدعي اسمي « المسيح » و « سيبيل » [1] الرمزيين لتحديد مشهد ينطوي على صراع اصبحت النفس التي اسهم في تكوينها هي مسرحه ومجاله . فلنعد مثلاً قراءة المقطع المتعلق برجوع « ريمون كوريج » الى ذويه في رواية « صحراء الحب » ، وسط العناء الشتوي القابع في ضاحية « بوردو » ، او المقطع المتعلق بالعاصفة الليلية فوق الكروم في رواية « عقدة الافاعي ». انه لمن المفيد ان نسجل تكرّر بعض الايماءات المفضلة في تسلسل الافكار هذا . لقد لاحظت « نيلي كورمو » بحق ان « ما يستوقف مورياك من بين جميع الوجوه هو وجه الارض المنهوكة . اما الكروم فهي صورة لحياة مزدهرة سعيدة رخية ، ولذا يكاد يوليها نظرة من نظراته . » كذلك لا يملك المرء إلا أن يدهش للايثار الذي يخص به الصيف ، وساعات الاصيل ، سواء أكانت صارخة وجافة بلا رحمة ، أم كانت مثقلة بعاصفة وشيكة الهبوب . ذلك أن قوة الشمس التي تنضج العنب فوق التلال ، هي نفسها التي تذكي رغبات الجسد ، وتدفع النفوس الى الشبق والتمرد . فها هو « مارسيل ريفو » بطل

(١) راجع الحاشية رقم (١) ص (١٨)

رواية « ما كان قد ضاع » يمزق قلبه الغيور ليستدعي الى ذهنه صورة المكان الذي عاشت فيه زوجه الشابة قبل زواجهما : « وبذل كل جهده في تذكر « لاهوم » التي رآها مرة واحدة تنام في ضوء القمر عند متخفض من الارض : المدخل وغرفة الاستقبال التي جعلتها مظلمة مصاريع النوافذ المغلقة بسبب الحر الفظيع ... لِمَ الحر ؟ كان بإمكانه كذلك ان يتخيل الاسرة في أحلك اوقاتِ الشتاء ، وقد لزّت الكراسي لزّاً شديداً حول النار الوحيدة الموقدة في البيت . كما كان في مقدوره ان يسمع صوت المطر الذي لا ينقطع فوق الكروم الميتة ، وعلى الممرات الموحلة ، حين كان على سكان البيت ان يوقدوا القنديل قبل الساعة الرابعة ، لشدة احداق الاشجار بالمنزل فتجعله مظلماً . وكذلك صوت الماء الفائض من الميازيب التي سدّتها الاوراق المتعفّنة . ولكن ، لا ، انه لا يستطيع تحديد المأساة إلا في اطار اتون العطلة الكبرى ، وإلا في اطار خدر الحياة البشرية والنباتية ، في الوقت الذي يعجز الجسد والروح عن مقاومة اللهب ، وفي الوقت الذي تشتد فيه الرغبة القديمة بفعل تلاشي الكون . »

ومما يجدر تسجيله ذلك التكرار المألوف للمشاهد الطبيعية الجيروندية واللاندية . فالواقع ان مورياك لا ينجح في تصوير غيرها . وهو لم يحاول قط تصوير سواها ما خلا المشاهد الباريسية . لكن الفصل الباريسي الذي تجده في عدد من الروايات ، غالباً ما يكون أقل الفصول نجاحاً . فهل يكون مردّ ذلك الى نقص في الخيال ؟ ربما . ولكن يجب الأخذ بعين الاعتبار القدر اللازم منه كيلا يمل المرء تكرار العناصر الوصفية

ذاتها : غابة الصنوبر المنحنية تحت ريح الغرب ، وتلال الكروم ، والنهر الممتد في المروج تحت صفوف اشجار الحور . إن علينا على الاخص ان نرى في ذلك كله نتيجة تحيّز فكري . فلقد عزم مورياك على العيش والتفكير والاحساس في صميم دخيلته . وترسبت الارض والبيئة في اعماق كيانه العاطفي طوال سنوات الصبا والمراهقة الحاسمة . إنه يتمثل كتبه ويؤلفها بحضور ذلك الافق الذي يراه من شرفته في « مالاغار » . ولا نغفل ان مأساته الداخلية تدور في ظل ما هو كائن ، كما دارت مأساة « لوتي » مثلاً في ظل ما سيكون . إن نفس « لوتي » التي كانت فريسة لشعور مدوّخ بأنها عابرة ، كانت تحط على سطح الاشياء فتنتشي تارة بظواهر العالم الرائعة ، وتتمزق طوراً تحت وطأة الفراق . اما نفس مورياك التي هي فريسة الحاجة بالاحساس بأنها سرمدية ، فتغذي الوجدان على الدوام بالمأساة المفرطة التي تمثلها على الفور في وعائها الجسدي . وهكذا تترسخ في قطعة الارض التي ولدت فوقها بذاتها ، ثم بانخراطها في العالم عن طريق اقوى الاحاسيس. ان مشهداً واحداً يعجبها ، بل هو يكفيها ، وذلك المشهد هو الذي تحس فيه احساساً جلياً بماهيتها وموضعها من الكون . ومن هنا كانت الحدة الشعرية في الصور التي تحفظها لذلك المشهد ، اذا كان الشعر ذلك الارتعاش الذي يتولد عندما تختلط ماهية نفس من النفوس باعماق الاشياء .

ولقد شرح مورياك هذه النقطة الهامة عشرين مرة بعبارات تكشف

عن نياته بجلاء . فقد قال في « الروائي وابطاله » : « لا يمكن لأية مأساة ان تأخذ بالعيش في ذهني اذا انا لم اضعها في اطار الامكنة التي طالما عشت فيها . ان عليّ ان اتبع ابطالي من غرفة الى اخرى . وغالباً ما تكون وجوههم غير واضحة القسمات في نفسي ، فلا اعرف غير اشباحها . لكنني مع ذلك أشم رائحة العفن في الممشى الذي يجتازونه ، ولا أجهل شيئاً مما يشمّون او يسمعون في تلك الساعة من النهار او الليل ، وهم يغادرون المدخل ويتقدمون نحو الدرج . » ثم هو يوضح جيداً بعد ذلك في « نظرة الى رواياتي » ، أن تعلقه بمنظر فريد يمثل تجربته الحميمة يجب الا يعتبر مأخذاً على فنه ، لانه « رمز نزاهته بحق ». وفي هذا الصدد يعلن نفسه عن جدارة صنواً لـ «بروست»، لا لوجود ادنى اثر لجملة « بروست » المتماوجة البراقة الاخاذة في جملة مورياك الموجزة المعدنية الرنين المصنوعة في أناة وجلَد ، وانما لان مورياك يبحث مثل « بروست » عن مادة مؤلفاته الحيوية داخل ذاته ، داخل اعماق وجدانه الحقيقية ، داخل ذكرياته ، وبخاصة تلك التي لها طعم مياه الينبوع وبرودتها ، اي ذكريات صباه . وهو يرى ، شأنه شأن الباحث عن « الزمان المفقود » –أي « بروست » – ان « روح صبانا تظل ثابتة لا تتغير تحت الطبقة الصفيقة التي تخفي اعمالنا ، لان الروح لا تخضع لعوامل الزمان . » وهو نفسه يقول في « نظرة الى رواياتي » : « يجب إعادة النظر في ما يربطني بـ « بروست » من وشائج القربى . فانا لا أراقب ولا أصف ، وانما

مُوريَــاك

احاول العثور من جديد على العالم الضيق المطبوع بطوابع «الجنسينية» [1] الذي عاش فيه صباي المكروب الورع المنثني على نفسه ، وعلى منطقة بلاد الاقاليم التي كان منغمراً فيها ... لقد جرى كل شيء وكأن باباً في ذاتي قد اغلق الى الابد ، وانا بعد في العشرين من عمري ، دون ما سيكون مادة لاعمالي الادبية . »

بديهي جداً ان يسلم مثل هذا الموقف الكاتب الى الشعر ، حتى وان صده عنه شعور حقيقي بعدم الكفاية في نظم الشعر ، وحوله الى الكتابة بالنثر . ولم يسمح هذا البحث القلق عن النفس ، ولا ذاك الترسّخ المنتظم في اعماق الوجدان الرطبة المغذّية ، ان ينحط الفن الى درجة التسلية مهما افترض فيها من سمو ، بل جعلا من الفن تمريناً للنفس ، وسبيلاً الى ما هو اساسي . واقتناع مورياك تام بما تكفله الكتابة من كرامة . والحاجة الى الكتابة هي في نظره « مطلب طاغٍ عميق » . وعلى هذا الصعيد ايضاً يجب تقريبه من « بروست » ، لانه مثله يرى في الكاتب فناناً ، وفي الفنان « رجلاً لا يستسلم الى الوحدة » ويصبو الى الافلات من « قفر الحياة ووحدة الموت الكلية » . وقد كتب في « الله ومامون » يقول : « حين لا يكون إلا كتاب واحد ، سطر واحد ، آه ! فليخلد شيء ما من ذاتنا ،

(١) نسبة الى جنسينيوس ، وهو مذهب ديني يدور حول الرحمة الالهية والجبرية ويتشدد في النواحي الاخلاقية . وقد كان دير « بورروريال » مهداً لهذا المذهب . (المترجم) .

مُوريــــاك

وليتفخ بعدُ فم بشري فنيّ في عصور العصور ، بالنشيد الذي سبق ان ابدعناه ! » ولكن لكي يكون هذا النشيد نشيد السلام والتحرر ، لا بد ان يبرز الموسيقى الكلية المطهّرة النابعة من نفوسنا . ان الكاتب الحق هو ، قبل كل شيء ، مزاج فريد لا نظير له ، يعبّر عن رؤية للحياة صادقة وطريفة في آن . وكما أن « بروست » يعتقد بأن العالم يعاود الظهور مع كل فنان عظيم ، كذلك كتب مورياك في الـ « مذكرات » : « ليست المسألة بالنسبة الى الناقد ان يعرف ما اذا كان لهذا المؤلف اهمية « بلزاك » أو « تولستوي » ، وانما اذا كان موجوداً بوصفه « جرماً » ، أو إذا كان يؤلف عالماً مقفلاً في وسع بعض الناس بلوغه ، عالماً مألوفاً يفضّلونه على كثير غيره » . وهذا هو بالفعل طموح مورياك ، وفي الوقت ذاته ، نجاحه الكبير . لقد اراد ان يكون مبدع عالم شعري ، فكانه .

مُوريــــاك

الروائي : قيمة الرواية ـ القصيدة وحدودها

ترى هل لعالم الشعر ديباجة عالم الرواية واتساعه ؟ وبتعبير آخر ، هل لحكاية منطلقها الواضح انفعال الانسان ، اهتزاز عالمه الداخلي ، انبعاث ذكرياته ، ازمة تدور داخل وجدانه الخلقي والديني ، ان تكون رواية بالمعنى الذي يضفى في العادة على هذه الكلمة ؟ وهل هي تفلت من قبضة النبرة الغنائية ؟ وهل يمكن ان يعثر المرء فيها على موضوعية في تحليل المشاعر ، واتساع في ملاحظة الواقع ، واستقلالية عند الابطال ازاء مبدعهم ، وكل الصفات التي يبدو أنها تمت بصلة الى جوهر النوع الروائي ؟

مما لا ريب فيه ان الاستعداد الشعري الذي عالج به فرانسوا مورياك الرواية جعله يواجه عدداً من الصعوبات الفنية ، ورسم له سلفاً بعض الحدود التي كان عليه ان يدفع بها الى اقصى ما في وسعه دون ان يفسدها ، وذلك بفضل قوة موهبته . ومن ناحية ثانية ، فانه من غير المجدي ان توجّه اليه حول هذه النقطة انتقادات صاغها هو نفسه بوصفه احد أكثر الفنانين وعياً لوسائله وغاياته ، بين الروائيين المعاصرين . انه لم يزعم قط أنه من اتباع « بلزاك » ، ولا أنه يصبو الى منافسة

دائرة الاحوال الشخصية ، ولا انه يرسم لوحة لحقبة معينة من الزمن . بل هدفه بالاحرى تحقيق رائعة فذّة ، كتاب واحد قد يبرز فيه ما هو اساسي ، ويعفيه من كتابة آخر . فما همّ الا يكون لديه سوى موضوع واحد : هو مأساة النفس التي تتجاذبها الشهوات الدنيوية وحب الله؟ سوى اطار جغرافي وحيد : هو بلاد الاراضي البراح والكروم؟ سوى بيئة اجتماعية واحدة : هي البرجوازية في بلاد الاقاليم ؟ لقد كان في مقدوره ان يسقط هذه المأساة على نفوس أخرى ، لأنه عاناها شخصياً . وذاك الاطار الجغرافي ، لقد عاش فيه بجسده وعرفه حق المعرفة . وبلاد الاقاليم تلك اختارها لأنها اصلح مناخ لتشجيع مآسي النفس ، ولأنها اكثر العوالم زهداً ونسكاً ، واشدها خضوعاً للرقابة ، واكثرها تعطلاً وفراغاً . « بلاد الاقاليم . انها ارض الوحي ، ومنبع كل نزاع ... ففيها يختبيُ البخل والعجرفة والحب — وهي امور مرصودة في كل لحظة — وتقوى جميعاً بفعل المقاومة التي تتصدى لها ... »

اما السبيل للانتقال من عالم النفس والذات الى عالم الاخراج الروائي ، فقد رسمها مورياك جيداً ، كما ألقى من خلال ابحاثه النظرية اضواء ساطعة على ولادة الكائن المحوط بالاسرار ، ألا وهو بطل الرواية . فهو يعتقد مثل ما يعتقد « جيد » بأن الروائي يضفي الحياة على ابطاله لا باسقاط شخصيته الواعية المحققة خارج ذاته ، وانما باسقاط ما في « أنا »ه المبدع من كوامن خفية ومضغوطة . كان «جيد» يسمي هذه الكوامن « البراعم » ، مستعيراً الاسم من قاموس للنبات . ويسميها

موریاك « الفضلات » باعتباره واعظاً خلقياً وقاضياً . وعلى الرغم من هذا ، فان ذلك الاسقاط لا يمكن ان يتم في الفراغ ، وانما في الاحوال الطبيعية على كائنات نلاحظها وتقدم لنا وجوهاً وطباعاً واوضاعاً معينة . هذا إلا ان يخترع الروائي — على العكس من ذلك — « الاقدار » المأسوية التي تتاح فيها الفرصة للشخصية المتخيّلة لتحقيق هذه الشهوات الخامدة التي خرجت هي منها . وهكذا فان بطل الرواية ليس مخلوقاً بكل معنى الكلمة ، لأن ملاحظة الحياة هي التي اعطت نموذجه او ذريعة وجوده . لكنه في شكله الاساسي لم يخرج من عملية الملاحظة هذه ، لان الروائي نفخ فيه روحاً من روحه ، وركبه في اغلب الاحيان ، من عناصر الحقيقة الخارجية والداخلية ، حسب مقادير اعتباطية .

ولهذا السبب ، ولاسباب أخرى غيره ، قد يكون من السذاجة اعتبار موریاك روائياً اقليمياً ، على الرغم مما يتجلى في أدبه من طابع بلده الغسكوني . واذا كان يتخذ ابطاله من المحيط الذي ولد فيه ، فان الاسباب التي تحدوه الى ذلك ، هي نفسها التي تهيب به الى اتخاذ المشاهد التي تكونت فيها حياته الحسية والعاطفية مسرحاً للاحداث في كتبه . ذلك انه في حاجة الى ان يدعم باستمرار ابداعه الروائي بتجربة عاشها بشكل حميم . لكنه ينظر الى الناس والاشياء على الدوام من خلال تمرّد انفعاليته ومأساته الشخصية . وكما ادخل على غير قصد منه صراع « سيبيل » و « المسيح » دائرة ضيقة تقارب كثيراً دائرتي « مونتي » و « مونتسكيو » ، ولكن في بلد خلبه الضياء

ورغد العيش وحدهما ، كذلك ضاعف عدد المترهدين المشبوبي العواطف من مالكي الارض البرجوازيين الذين هم أبسط من غيرهم في بخلهم وشرههم . انه يتحدث بصدق في « بدايات حياة » عن مدينته « بوردو الماثلة في دخيلة نفسه » . وواضح — فيما عدا « امتيازات الصدارة » — ان « بوردو الماثلة في دخيلة نفسه » ، المصورة تصويراً شعرياً وعاطفياً ، لا تربطها علاقة كبيرة بـ « بوردو » المتبخترة عند « متنزه مكتب الادارة » ، الشاربة كأساً من خمرة مقبّلة في « ساحة الكوميدي » ، المؤثرة للحديث عن المال والملذات على الحديث عن اللاهوت والشهوات ، سواء بلهجة « لاروسيل » المقذعة ، او بلهجة « شارترون » المهذبة .

بهذا الشكل طرح مورياك ، في كثير من نفاذ البصيرة ، المعضلة التي تواجه كل روائي ، معضلة مزج الموضوعي بالذاتي ، واجاد حلها على كل حال . انه يحب الاستشهاد بقول « فلوبير » : « مدام بوفاري . انها « أنا » . وهو مثل فلوبير قادر على الفخر بأنه ابدع اشخاصاً احياء من حياته هو . ومع ذلك فان هؤلاء الاشخاص ليسوا لصيقين به ، بل لهم استقلالهم . وهم يتميزون بأنهم صادرون عن حقيقة شاملة اكثر مما هي محلية ، ونفسانية اكثر مما هي تاريخية ، حقيقة هي على كل حال مثيرة وهامّة . ثم ان هناك معضلة اخرى لا يستطيع الروائي تجنبها ، معضلة الروابط بين للفن والحياة . وما كان مورياك لينظر اليها بغير ما نظر به الى الاولى . وكان ان اختار من غير ان يموّه على نفسه ان الاختيار هو بالضرورة رضى بحدّ معيّن .

وها هوذا يقول : « لا أظن ان احداً من الفنانين نجح يوماً في تخطي التناقض اللصيق بفن الرواية . فهذا الفن يدعي من ناحية انه علم الانسان ؛ الانسان ، هذا العالم المليء بالعجيج الذي يدوم وينساب ؛ ثم هو لا يحسن الا أن يعزل من هذا العجيج شهوة ، أو فضيلة ، أو رذيلة ، فيثبتها تحت عدسته ويروح يضخّمها بلا قياس : هناك الاب « غوريو »[1] أو الحب الابوي ، وابنة العم « بتّ » أو الغيرة ، والاب « غرانديه » أو الشحّ . وتزعم الرواية من ناحية اخرى أنها تصور الحياة الاجتماعية . ومع ذلك فانها لا تبلغ مطلقاً إلا افراداً تجتث اكثرهم من جذورهم التي تربطهم بالجماعة . وبكلمة واحدة ، يعمد الروائي الى الفرد فيفرز شهوة من شهواته ويجمّدها ، والى الجماعة فيفرز منها فرداً ويجمّده . وحين يفعل مصور الحياة هذا يكون قد عبّر عن خلاف ما هي الحياة ، ولا يعدو فنّه ان يكون افلاساً . »

وانها لعمري صيغة مبالغ فيها ، لان خصيصة كل فن هي أن يتخطى التناقض . والروائي الجيد لا يخطئ ابداً هدفه المتحرك إخطاء كلياً . ولكن الحق ان تأليف الرواية معناه السعي دائماً الى حل معضلة دقيقة ، هي معضلة التوازن والتوتر بين مطلب الوحدة والانسجام ، والتوتر إزاء الأمانة لما هو متحرك وما هو متعدد . وليس ما يسمى اسلوباً خاصاً بروائي او بمذهب أدبي ، الا حلاً بين يدي هذه المعضلة . حل يبحث عنه تارة في اقرب المواضع الى قطب الفن (وهذه هي النزعة

(١) الاب « غوريو » ، وابنة العم « بت » ، والاب « غرانديه » ثلاثة ابطال لثلاث روايات لبلزاك . (المترجم) .

الكلاسيكية التي تسعى اكثر فاكثر الى ارضاء الذوق عن طريق الاسلوب)، وطوراً في اقرب المواضع الى قطب الحياة (وهذه هي النزعة التي تدعى على التوالي النزعة الطبيعية، والنزعة الواقعية، والنزعة الوجودية، والتي تزعم أنها تتطلع الى ان تكون الرواية اداة لمعرفة تامة بالانسان والمجتمع).

ومن الواضح ان مورياك يميل في محاولته الخاصة الى الجانب الكلاسيكي. وهو اذ يرغب في ان يدع لابطاله «اللامنطق والتردد وتعقيد الكائنات الحيّة»، يرغب كذلك في ان «يستهم في البناء والتنظيم حسب نبوغ جنسنا.» انه لا ينفك يتعهد النظام والوضوح، وكل ما هو مختصر، وحتّى الحياء الذي ليس بالنسبة اليه ضد الجرأة، ولا سبيلاً لاستبعاد شيء مهما كان من الحقيقة، وانما هو طريقة مهذبة لقول كل شيء. والرواية المورياكية تنزع في العادة، بفضل إيجازها وسردها المحكم المركز غالباً حول شخصية واحدة، الى فن الاقصوصة، وهو اكثر دقة من فن الرواية. واكثر مؤلفاته نجاحاً وكمالاً، وهي: «القبلة الى مجذوم»، و «طعنات السكاكين» ضمن «ثلاث حكايات»، و «حالات ارق» و «المرتبة» ضمن «غطسات»، وحديثاً «القذر»، هي اقاصيص بالمعنى الدقيق. وخصائص ذلك الاسلوب الذي ارتضى الجزالة على حساب ما هو متعارف عليه، تنتقل به بشكل طبيعي الى المسرح. فيوم حلا لمورياك، هذا الروائي الراسيني الذي يقف اقرب ما يمكن من الازمة، ويلغي فترات الاستراحة، ولا يحجم امام المشهد الذي عليه خلقه، ويثبت

موريـــاك

كل شخصية في خصائص طبعية مرسومة بحزم ، نقول يوم حلا لمورياك ان يصبح مؤلفاً مسرحياً ، لم يكن عليه ان يبدل كثيراً في طريقته ، بل غدا منذ المحاولة الاولى احد اساتذة الفن المسرحي . (اني ارتاب ان يكون يفضل مسرحياته على رواياته*؛ وليس هذا على العموم رأي الجمهور والنقاد . والواقع انه سينقص مسرح مورياك دائماً ذلك الجمال الاسلوبي القصصي الذي لا يضاهى : موحيات الاطار الزخرفي الشعرية . فما من اخراج مسرحي ، مهما علا كعبه ، يعادل سحر الايحاء في جملة من جمله) .

وعلى هذا أعلن « جان بول سارتر » في مقالة شهيرة بأن فرانسوا مورياك لم يكن روائياً، ودافعه الى ذلك وجهة نظر نقدية عقائدية صرف . فقد قال : « إن على المرء في الرواية ان يصمت او أن يقول كل شيء ، وعليه خاصة الا يغفل شيئاً ، والا يتجاوز شيئاً » . وينبغي ترك الأبطال « يجترون قصتهم الى ما لا نهاية دون التوصل الى جعلهم يتقدمون » ، والاحتراز خاصة من التعرض لحريتهم ، وجعلهم

---

* « لست أفضل مسرحياتي على رواياتي . واني لأشعر ، وقد دخلت عالم المسرح متأخراً جداً اني لم أقدم فيه كل ما أملك من قدرة . لكن ما لا مجال للريب في صحته ، هو ان ما يعجبني في « المفتقرون الى الحب » مثلا ، كون هذه الدراما خلواً من كل سهولة في السرد الروائي ، ومن كل التوابل التي تضاف اليه . اما مفهومي للمسرح النفساني فيسير في اتجاه معاكس لما ينتظره الناس من المسرح ، ولما يتمناه المخرجون فيه والمهيمنون عليه . »

« مُتوقّعين » ، وتحديد اعمالهم سلفاً من خلال طباعهم ؛ ثم ينبغي عدم الحكم عليهم او الغوص في قلوبهم ، والاكتفاء بابراز حركاتهم ونقل اقوالهم . وقد كتب موررياك : « وقطعت « تيريز » جملتها عند منتصفها (لان حسن نيتها كان تاماً) . » فقال « سارتر » بأن الروائي الجيد لا يلجأ الى مثل هذا الاستطراد الذي يحوّل الشخصية الى شيء ، ويعلّقها الى وجدان مبدعها ، بل هو يقتلها . قد يؤخذ طبعاً على شجرة الخوخ انها لا تحمل تفاحاً ؛ ويمكن ، حصراً ، تحديد فنيّة الرواية من خلال فنيّة أسرة واحدة من الروائيين . إن موررياك لا يكلف نفسه إعادة تصوير بلبلة الوجود بشكل غير منتظم ، وانما ان ينتزع منه رموزاً معبّرة ومثيرة وقابلة للفهم ، الأمر الذي هو حق من حقوقه ، اكثر مما قد يكون غاية الفن الروائي ، وبصورة أعمّ غاية كل فن . « لأن اعلم ما يعتمل في نفس « تيريز » ولا تعلمه هي ، فذلك عرف لا ينجو منه روائي ، حتى ولا اولئك الذين يدينونه . » أوليست مناجاة النفس أو السرد المباشر وسيلتين ، بل طريقتين لاقتطاع المشاهد من كلية الواقع التي لا سبيل لبلوغها ؟ اني لا اعلم بأي حق يمنع على موررياك ان يؤثر اندفاعة مباغتة ممزّقة على تطور الأحداث المملّ المراوح مكانه ، اذا كانت هذه هي طريقته في بلوغ الحقيقة واثارة الشعور .

يبقى ان لموررياك اسلوبه الروائي الخاص ، وانه ليس من بناة المدن كما هي العادة عند كبار الروائيين ، وانما هو من مبدعي الاجواء كما هي حال الشعراء . انه لا يقدّم العالم الينا دفعة واحدة . وكما ان

مُوريـــاك

آلاف الموجات المجهولة القائمة في الوجود ، دون ان تدركها حواسنا . لا تتكشف لآلاتنا الا تدريجاً ، كذلك لا يمكننا النفاذ على الفور الى العالم الخلقي والعاطفي . ولكي ندرك ما في هذا العالم من علاقات خفية وسحر كامن في ما هو معقّد وحميم ، فلا بد من وسطاء هم بحق الشعراء . انهم اذ يدركون بحسهم الاشياء ادراكاً فريداً ، يستنبطون الرموز من هذا الادراك . وحينما نستمع اليهم نجد انفسنا أغنى بالمشاعر والضمائر . وهنا يحس المرء بالحاجة الى ان يضفي على كتّاب باعيانهم نعوتاً تتوافق وعوالمهم الخاصة ، كما يضاف الى الموجة الجديدة اسم العالم الفيزيائي الذي اكتشفها . وعليه ، فان هناك ولا ريب موجة « مورياكية » . ان السماء العاصفة التي ترهق اجسادنا وتبلبل نفوسنا تجعلنا نفكر انها سماء مورياك . واذا صادفنا نفوساً كدرة تشتعل بلهب كثيب ، قلقة بسبب اللحم والدم ، مسكونة بنذور التنسّك . قلنا طائعين : هي نفوس مورياكية . وان ما يشدّنا في كل مرة نفتح فيها رواية جديدة لمورياك ، وما يبقى ماثلاً في اذهاننا بعد قراءتها . ليس حبكة معينة ، ولا هو معرض صور الابطال ، وانما لطيفة من لطائف جوٍ خلقي ، ذائبة بشكل حميم ، في لطيفة من لطائف جو ماديّ . انه لمناخ ابدعه اسلوب ، وحقيقة روحية عبّرت عنها اصوات شعرية .

مُوريَــاك

معضلة الرواية الكاثوليكية

اذا كان مثل هذا العمل الروائي نابعاً من الشعر ووسائله التعبيرية ومعناه العام ، فانه نفساني في ديباجته ومدار حوادثه . وينبغي التأكيد بأن التحليل مطبق فيه بصورة اساسية على حالات من الوجدان الديني . لكن هذا لا يعني ان لقب « الروائي الكاثوليكي » يصادف هوى في نفس مورياك . فطالما اغدق عليه بسخاء ، وكان هو دائماً يراه غير موافق لهواه . و « الروائي الكاثوليكي » هو الذي يدرس ، في صلب رواياته ، او بشكل حصري ، احوال وجدان كاثوليكي وقضاياه ، مثل ما فعل « هويسمانز » في « الى الامام » و « عضو الرهبانية » ، وكما هي الحال عند « ليون بلوا » في « القانط » و « المرأة البائسة » ، وعند « ماليغ » في « اوغسطين » ، أو حتى عند « برنانوس » في معظم رواياته . وليس هذا الأمر مألوفاً لدى مورياك ، فهو اشد رغبة في اعتبار نفسه « كاثوليكياً يؤلف الروايات » ، ولهذه الصيغة مفهوم آخر بالطبع . انها توسع حقل التحقيق والتدقيق ، وتستبعد التحيز في الدفاع عن العقيدة والطابع الطائفي . لكن حل المعضلة لا يكون في اللعب على الكلمات .

مُوريَـــاك

انها معضلة ذات مظهر خلقي قبل كل شيء . فمجال الروائي هو الشهوة الانسانية ، اي بشكل شبه قدري ، سلطان الخطيئة . ومن شأنه ان يشغل خيال القاريْ بمغريات السعادة الدنيوية ، بمغامرات الحب البشري وغواياته . ولقد يكون من العبث ان يحاول المرء الاعتذار عن المغزى الخلقي الممكن استخلاصه من الخرافة . فمن خصائص احتراق القلوب أنه اكثر اغراء لنا بحمأة لهبه مما هو ارعاباً لنا بكآبة رماده . ومع ذلك تبقى طريدة الروائي هي الحقيقة . فما الظن بطبيب يرفض رؤية جراح الجسد وعاهاته متذرعاً بالحياء ؟ كذلك فان على الروائي ان يرفع جميع الحجب ، وان يسبر اغوار جميع الجراح ، مدفوعاً باخلاصه لمهنته ، او هذا هو على الاقل ما يحتج به . ولكن ، ألا يجد في ذلك لذّة يا ترى ؟ أفلا يقحم قارئه ، وعلى الاخص قارئته ، في مغريات فضول ضارّ ؟ انه لا وجود لمخلوقاته الا بقدر ما توقظه اصواتهم من اصداء متواطئة في ضمائر المتوحّدين . ويذهب مورياك ، مدفوعاً بشعور من الخوف يدعو للرثاء ، الى الظن بأن « اولئك الابطال لا سند لهم من حياتهم الخاصة : انهم قراؤنا ؛ وقلق القلوب الحية هو الذي ينفذ الى تلك الاشباح فينفخها ويسمح لها بأن تسبح لحظة في أبهاء بيوت الاقاليم ، حول قنديل تقرأ امرأة شابة على نوره حتى ساعة متأخرة ، ملصقة قاطع الورق الى خدها الملتهب » .

إن هذا الهاجس الوجداني لا يمكن ان يفلت منه « الكاثوليكي الذي يؤلف الروايات » . ومورياك اكثر تعرضاً من غيره لهذا الهاجس ،

الى درجة الشعور بأنه ينتشل انجح شخصياته من اعماق نفسه المضطربة . انه يجأر بالشكوى قائلاً : « من سوء حظ بعض الروائيين ، وأسفاه ! ان الالهام والموهبة الخلاقة لديهم ينبعان من اقل الاجزاء نبلاً وطهراً في كيانهم » . ثم هو يزعم من جهة اخرى بأنه « يخفق دائماً في تصوير شخصياته الفاضلة ». وليس هذا صحيحاً إلا على وجه التقريب. فهو يقدم في رواياته ومسرحياته مخلوقات طاهرة لا تقل حضوراً عن غيرها من الشخصيات . لكن يبقى صحيحاً من ناحية ثانية ، ان النجاح في تصوير الشخصية الفاضلة هو الاصعب ، وان الروائي قلما يكتشفها في عالمه ، عالم الاهواء والشهوات . فكيف يمكن ان تسكن مثل تلك الشخصيات في كتاب ؟ بل كيف يمكن كتابة رواية لا تضيء شمس الشيطان واحداً من وجوهها على الاقل ؟ لقد نجح بعض المثاليين في ذلك بشكل جزئي . ومن هؤلاء « فرنسيس جيمس » ، و « رينه بازان » ، و « لويس ايمون » . لكنهم نجحوا بعد أن حكموا على أنفسهم بألا يتعدوا مستوى قصة الحب الكبير ، وبألا تخرج من ناياتهم الا موسيقى المزامير ، وانغام التراتيل .

لا ، ان التملص من النزاع المؤلم غير ممكن ، وليس نسيان قانون نوع أدبي يستمد قوته من تصوير الشر بأسهل من اسكات صوت « بوسّوييه » القاطع ، وهو يحذر الكاتب المسيحي بقوله : ان الذين تركوا على الارض اغنى الانصاب والصروح ليسوا اكثر الناس ضماناً لعدالة الرب . فلا القصائد الرائعة ، ولا الاناشيد الجميلة تغني شيئاً عند مواجهته . وهو لن يحرم اولئك الذين تعهدوا الاشتهاء بشكل او

بآخر . » ان على المرء ان يقيم برزخاً بين ما يفرضه الفن من تصوير الانسان الخاطئ تصويراً صادقاً تاماً ، وما توجبه تعاليم الكنيسة من قواعد الحذر والحياء . وقد طالما خشي موررياك مثل هذه الملاحة الخطرة . ولو لم يجد الجواب عن خشيته في ذات نفسه ، لكان أوحى اليه به كتيّب « شارل دي بوا » الذي خصصه للحديث عن حالة الخوف تلك ، وعنوانه « فرانسوا موررياك ومعضلة الرواية الكاثوليكية » . فلقد ابرز « دي بوا » بوضوح ان كل شيء يرجع في النهاية الى موقف فكري ، الى نوع من « التنفيس » على الروائي ان يقوم به في ذات قلبه . « فليطهر الينبوع » ، اي ليجعل قلبه مسيحياً خالصاً ، وليفتحه واسعاً على الرحمة ، وبعدها لا يهمّ كثيراً ان تكون المشاهد التي يلاحظها وينقلها الى كتبه على قدر من القتامة . لأن كل حقيقة تغدو امام عينيه ، وعيني القارئ ، « جسماً شفّافاً » ، وتفقد الخطيئة صفاقتها ، ويصبح كل ما ينبع من احلك الرسوم — كما هي الحال في الظلمات التي رسمها « رامبرانت » — نوراً روحانياً . وقد كتب موررياك من جهته يقول : « لا شيء يمنع أن تكون الخطيئة عنصر حياة لرجل الادب ، وان تكون شهوات القلب الخبز والنبيذ اللذين ينعم بهما كل يوم . ولسنا نجهل ان وصفها من غير تواطؤ — كما دعانا الى ذلك « ماريتان » — هو ، ولا ريب ، في متناول الفيلسوف وعالم الاخلاق ، لا الكاتب المعتمد على الخيال ، الذي يتجلى كل فنه في ان يجعل العالم الحافل بالملذات المحرّمة ، كما هو حافل بالقداسة ، مرئياً ومحسوساً وعابقاً بالروائح . انها الصخرة التي نتشبّث بها ونعانقها

مُوريـــاك

حتى النفس الاخير ، شرط ان تبقى « الرحمة » حاضرة على الاقل في ما نكتب ، حتى وان كان محتقراً ومكبوتاً ذالك الينبوع البرّ ، وذلك المجرى الجوفي للحب ، اللذين يحسهما القاريُ في كل مكان »[1] .

قد يبقى ان نعرف ما اذا كان مورياك حقق مثل هذا التطهير للنفس والنيات ، وهو ما يعارضه سيئو النية الذين ما زال يطيب لهم تسميته « الورع السقيم » . ليس في ذات الفنان الكبير ما هو بسيط ، او ربما ينبغي القول بأنه ليس في القداسة بساطة . ومهما يكن من أمر ، فقد يكون من الفرّيسيّة ان يؤخذ على مورياك انه لم يكن « سان فرانسوا » ثالثاً ، بعد استاذيه في « اسّيز » و « أنسي » . وقد طالما وجدت من الظلم بمكان ذلك المأخذ المتكرر آلاف المرات بأنه يصوّر نفوساً قاتمة كئيبة ، بل قل « وحوشاً » . مع ان تلك التي يصوّرها

---

(١) فصل « الادب والخطيئة » من كتاب « الانسان والخطيئة » (منشورات « بلون » ١٩٣٨) . نلاحظ أن وجهة نظر مورياك المتمسك ، بوصفه مسيحياً ، بمطلب تصوير الأشياء تصويراً حقيقياً ، لها ما يبررها بالفعل في بضع جمل لـ « نيومان » الذي استشهد به « غراهام غرين » في كتابه « لماذا اكتب ؟ » (منشورات « سوي » ١٩٥٠) . فهو يقول : « بالنظر الى طابع القضية ، أقول لكم انه ، اذا كان ينبغي ان يخدم الادب دراسة الطبيعة البشرية ، فحينئذ ليس في وسعكم العثور على أدب مسيحي . ومن تناقض القول محاولة استخلاص أدب بلا خطيئة من الانسان الذي هو خاطيء » . ولا يخلص « نيومان » الى ضرورة القضاء على أدب الحقيقة الطبيعية والدنيوية ، وانما على العكس من ذلك ، الى ضرورة التمسك بمثل هذا الادب واستخدامه في تربية الضمائر واطلاعها على ما يدور حولها .

« جوليان غرين » ، وكثيراً من التي يصوّرها « برنانوس » ، اشدّ بشاعة من التي يصوّرها هو ، إذ إنه ، وان كان في النتيجة روائي الخطيئة ، نادراً ما كان روائي الجريمة . ثم ان علينا الا نخلط بين ما يتم عن وعي وما يتم عن انحراف ، وألا نتسرّع في ان ننعت بالوحوش خطاة عاديين ، ليس فيهم من غرابة سوى انهم يرغبون في التعرف على أنفسهم ، وانهم يريدون الاعتراف بخطاياهم في نزاهة وشرف . وعلى اي حال ، فان حرارة الاخلاص في مسيحية مورياك تضفي على تصويره الخطيئة جدّية ومأسوية طالما اعتبر بهما اكثر من مؤمن ، واثّرا في اكثر من مرتاب .

ولكن ما إن تذلل تلك العقبة وينقشع هاجس الاخلاق* ، حتى يصطدم « الكاثوليكي الذي يؤلف الروايات » بصعوبات اخرى تتعلق بعلم النفس والفن . فما الرواية القيّمة الجميلة ؟ انها سرد وهمي

* « لم أعد أشعر بمثل هذا الهاجس وانا في مساء حياتي . وليس ذلك بفعل لامبالاة دينية ، وانما على العكس من ذلك ، لأنني قمت بجردة حساباتي ، فوثقت ، بكل تواضع ، من انها لن تكون في غير مصلحتي . وما كنت ، على غير عمد مني ، ومن دون اي استحقاق من جانبي ، لأتوقف عن الادلاء بشهادتي . فالحق اني لم أتحدث ، سواء في مجال الخطيئة او مجال الرحمة ، إلا عن المسيح . ولأن تكون كتاباتي في خدمته ، فهذا ما أكده لي الكثيرون وما زالوا يؤكدونه . واذا حدث أن اسأت اليه ، فما كنت لاكفر به قط . وما حدث لي ابداً ، منذ صباي حتى اليوم ، ان خجلت « به » .

مُوريـــاك

يطرح مشكلة الحياة . وما من كاتب يستحق ان تقرأ كتاباته الا ويقدّم كائنات بشرية واقعة في شرك الصدف وقسوة الاقدار ، وإلا وهو يحمل في ذاته مأساة وجدانية . وبمعنى آخر ، فان الروائي الكاثوليكي محمول على النظر الى ما هو بشري نظرة مأسوية طبيعية ، لأنه ترعرع منذ نعومة اظفاره على تحليل ذاته ، ولانه يملك احساساً بدخيلته وبالقيم السرمدية التي تنطوي عليها افعال الاختيار . انه يملك « سبقاً في العمق » ، كما يقول « جاك ريفيير » . وهذا ما سبق ان احتج به في قوة « شاتوبريان » حين أثبت في كتابه « عبقرية المسيحية » أن « راسين » كان افضل تهيئة من « اوريبيدس » لبلوغ هدف « فيدر » المأسوي ، بفضل مفهوم الخطيئة المسيحي وحده . وكان « ادمون جالو » الذي تكلم من زمن على روايات مورياك ، قد لاحظ بحق أنه .« كان لكاثوليكيته العقارية فضل منعه من بعزقة حساسيّته ، والميل الى اللامبالاة واسترخاء الفكر ، وكل العيوب التي تزعج الانسان ، وتفقر بالتالي الروائي . ان تعريف الروائي ينحصر في انه ذلك الذي يعي الصراعات ، ويضع الشخص بمقابل نقيضه . وهي صراعات ومقابلات لا بد من القول بأنها تلطف وتنحلّ اذا نحن حذفنا من الحياة وجهات النظر الدينية والعقائد الخلقية » . وقد اعترف مورياك نفسه بفضل ايمانه للديني عليه كفنان ، فقال : « ها انذا اليوم اشعر بكل ما ادين به لكاثوليكيّتي كروائي . وقد كنت أفاخر بأني قدمت من هذه الوجهة بعض التضحيات الى الله . ولكن لا ! حتى ولا هذا . ان افضل اعمالي الادبية ، او قل ابرزها واشدها تأثيراً ، وبشكل

ابسط اكثرها اهمية ، نابع من ايماني العميق . وحتّى على هذا الصعيد ، انا مدين بكل شيء ليسوع المسيح . انها البهجة والاطمئنان لوجوده ، كما كان من قبل الكدر لغيابه وأسفاه ! ان حال الخطيئة التّي كنت عليها ، وحال الرحمة التّي انا فيها الآن ، هما اللتان ابدعتا نهار العالم المتواضع الذي تخيلته وليله ، بل هذه الظلمات التّي تخترقها بعض الاشعّة »[1] . تلكم هي الحسنات ، وهي ذات اهمية . ولكن هنالك كذلك العبوديات . واحدى تلك العبوديات هي بالتأكيد الاقدام على تصوير الانسان وفقاً لنظام خلقي يحمل في طيّاته مفاهيم عقدية لا مراء فيها ، وتمييزاً بين سبل الخير والشر لا مجال لدحضه . وهذا ما يعرض الروائي ، في سلوكه التحليلي . واثناء التأليف ، لمخاطر واخطاء جمّة .

قد تكون اولى العقبات واقساها تأليف رواية ذات عبرة . بقسمة البشرية سلفاً الى أناس طيبين ، اي ذوي الآراء السديدة ، وأناس خبيثين ، اي الآخرين . ومن نافلة القول ان مورياك يتجنب على الدوام مثل هذا الجنوح الذي يستدعي الرثاء ، بل هذا الخطأ المهني الذي هو خطأ لاهوتي في الوقت نفسه . اذ ما من احد يمكنه ان يجزم بأن الرحمة ستغدق على فلان دون فلان . فالله وحده العليم بمكنونات الصدور والافئدة . وربما كان مؤلف « اقدار » و « الفريّسيّة » يميل الى ان يكون صارماً مع المؤمنين الاوفياء في إقامة الشعائر .

(١) رسالة الى « ريكس » ، يوم الاثنين المقدس من عام ١٩٣٣ .

ورحيماً ، ان لم نقل مستلطفاً ، بالعصاة والخطاة . وعلى كل حال ، فانه يأخذ بشيء من الغموض على الروائيين الحاضّين على التقوى أنهم اقتصروا على « تصوير أناس متسامين ، ملائكيين ، ليس فيهم شيء من صفات البشر ، بينما كان حظهم الوحيد ان يتمسكوا باظهار ما تبقيه القداسة من صفات انسانية بائسة في المخلوق البشري ، وهذا بالذات هو حقل الروائي . » بل ربما فات الروائي الحاضّ على التقوى اكثر من هذا الراسب من البؤس في النفس المقدسة ، وربما كانت المحبة للخاطئ هي ما ينبغي ان يكون مجال الروائي المسيحي في نظر مورياك ، وكذلك رؤية جمر الحب المقيم تحت الرماد ، والجرأة على « القراءة في عيون المساكين ، اذ لا شيء يبعث على السخط أو التقزز في ما هو انساني » .

عقبة اخرى يصطدم بها اكثر الروائيين ذكاء ، هي « الرواية التي تدور حوادثها حول قضية معينة » فالمرء يطرح فرضية تقول : بالنظر الى الصعوبة المطلوب تذليلها ، او الى الغاية المرجوّة للفرد او للجماعة ، فان الحل الكاثوليكي هو الحل الافضل ، بل الحل الوحيد الممكن . ومعلوم ما كان لهاجس اثبات هذه الفرضية من ثقل على آثار « بورجيه » الادبية . اما مورياك فقد تخلص نهائياً من ذلك عن طريق التجديد في وجهة النظر التي لا تتمثل في النفع الاجتماعي على اية درجة كان ، ولا تقول بالاخلاقية الا استطراداً ، والتي تنادي على الاخص بالحياة الروحية والصوفية . وان ما يبحث عنه ابطاله ، مثل « جان بيلوبير » ، و « اليزابيت غورناك » ، و « الدكتور

كوريج » ، و « ايرين بلينوج » ، وحتّى « تيريز ديكيرو » ، ان ما يبحث عنه هؤلاء الابطال عن غير عمد ، ليس قوة ونظاماً يمكنانهم من كبح طبيعتهم ، بقدر ما هو معين لري عطشهم : فإما مياه تسممها شهوات القلب والجسد ، وإما دفق من حب خارق للمألوف .
واذا اتسمت روايات مورياك بقيمة ما في الدفاع عن الدين ، فهذه القيمة لا تظهر إلا بشكل إيحاء غير مباشر ، وبالتحديد على الشكل الذي تظهر به من خلال مجرى الحوار بين « بسكال » والملاحدة .
انه يقدّم نفوساً حيّة تدور صراعاتها الحميمة داخل حقيقة الوجدان .
واذا بدا ان تلك الصراعات قد وجدت لها حلاً ، فان حلها لا يكون الا وفقاً للتعريف الذي تقدمه كنيسة المسيح عن طبيعة الانسان ، وقدره ، وشقائه ، وسلامه الممكن . انه ينطلق من معرفة بالقلب بكل ما له من نزعات ، وما فيه من ظلمات ، بكل ما فيه من عظم وبؤس .
وهذه المعرفة يمكن ان يملكها الانسان السويّ عندما يغوص في اعماق ذاته فيختبرها من خلال شهواته . واذا قدّر لبطل « عقدة الافاعي » ان يكتشف ان الاحقاد التي تعذّبه معادلة في العمق والعدم لما ينبغي ان تكون عليه المحبة في البروز والتمام . فليس في الامر ما يجب اثباته من الوجهة العقدية ، وانما هو وصف صادق لتجربة داخلية تجد مغزاها بصورة طبيعية في الفرضية المسيحية . ليس في الامر اذن ما يشبه « الدفاع التجريبي عن الدين » العزيز على قلب « بورجيه » ، وانما هو دفاع عن الدين على طريقة « بسكال » ، ومعرفة بالنفس واستعداد من القلب لتقبل الرحمة .

ومع هذا ، هناك خطأ ثالث يجب تلافيه ، وهو أدق الاخطاء جميعاً ، عنينا كتابة الرواية ذات الطابع الاقناعي في الدين . ففيها تسرد حكاية نفس ، ويجري تشخيص مثير ونزيه لامراضها ، ويغاص على خطاياها وقنوطها ، فيفهم منذ السطور الاولى « انها نفس تملك كثيراً من الفضائل ، فكيف لا تكون مسيحية » . وعليه ، فان القارئ الذي بكّر في الشعور بكل هذه الامور بشيء من العناء ، توسعاً في السرد يبدو بجلاء انه محدد سلفاً . ولكي ينتصر الروائي للرحمة والايمان ينتهي به المطاف الى تيسير سبل النجاح لهما بشكل ورع ، كما يفعل « بورجيه » حين يضاعف الوصايا العشر والتعاليم المسيحية . ويتجنب مورياك الوقوع في هذا الغرق بفضل نزعته اللاهوتية التي ليست على ما يبدو الا شكلاً من اشكال مزاجه الديني . واذا كانت طريدته هي في العادة النفس التي برح بها بؤسها ، او على الاصح « بؤس الانسان الذي لا ربّ له » ، واذا كانت الفكرة الدائرة خلف ذهنه ، والموحى بها بشكل متفاوت في الوضوح ، هي ان كل شفاء ، وكل سلام موجودان في المسيح ، فانه أبعد من ان يثبت انهما سهلان وطبيعيان . انه يستدعي بالاحرى اللاهوت الارثوذكسي في إلحاح يثير القلق احياناً ، ويستحضر القوانين السرمدية التي يبدو أنها تشد النفس الى ارجاسها . وتحتجزها في غرورها ، وتنذرها للضياع . وفي الحدود التي يعترف فيها هو نفسه بأن قراءاته وتربيته صبغت إيمانه بصبغة « جنسينية » ، نرى هذه الاخيرة قد أفادت فنه كما افادت فن « راسين » . اذ اضفت عليه شعوراً بنوع من قدرية الشر والبؤس ،

مُوريـــاك

هو في أساسه شعور مأسوي ، وشعوراً بغموض يلف مصير المسيحي ، هو في اساسه شعور درامي . ان « الجنسينية » تلقن المرء ان القدر مرسوم من قبل ، وان السلام باطل تماماً ، وان الطبيعة فاسدة فساداً نهائياً ، وان هناك ارواحاً منذورة للضياع . ولو انه تشبث بهذه القدرية المتشائمة ، لما توصل الا الى مأسوية بسيطة اشيلية [1] ، مأساة الانسان الذي يسير صوب الكارثة وهو معصوب العينين . لكنه في الحدود التي يُدخل فيها عنصر « الرحمة » ، وينقذ فيها الحرية بشكل مفارق ، صادراً في ذلك عن روح المسيحية الاعمق ، يبدع نوعاً آخر من المأسوية ، اكثر تعقيداً وحداثة ، مأسوية الانسان الفاعل المناضل المعلّق بين سرمديتين ، سرمدية العدم وسرمدية السلام ، بين القفر اللامتناهي وكمال الحب اللامتناهي ، وذلك من دون ان نعرف ، بل من دون ان يعرف هو بالذ ت ، في اي اتجاه سيترك نفسه تنجرف . وقد استغل مورياك بشكل متين هذا الاحتياطي من الشجى المدوّخ . انه يسبغ الحياة على مخلوقات تمثل امامنا مشهداً نشعر فيه بأنهم في رهان ابدي ، لكننا لا نكاد نعرف ابداً ما اذا كانوا سيربحون الرهان ام لا . « كنت اود يا « تيريز » ان يسلمك الالم الى الله . وطالما رغبت في ان تكوني اهلاً لاسم القديسة « لوكيست » ... » لكن الشخصية تظل محتفظة بسرها حتى حيال الروائي نفسه ، وتدخل عالم

(١) نسبة الى « اشيل » ابي المأساة اليونانية . (المترجم) .

الموت وكأنها تدخل سراً لا تنفذ اليه الا عين الله ، فلا نعلم عما ينتظرها وراء قنوطها ، اكثر مما نعلم عما ينتظر « فيدر »[1] .

وهكذا استخدم مورياك كل ما توفره للروائي من موارد وجهة النظر الكاثوليكية عن الانسان والحياة ، وذلّل العقبات ، وتجنّب العثرات التي وضعتها بازاء فنه . وهو لا يفتقر الى الشهادات الخاصة والعامة بحق نجاحه . لكن واحدة من هذه الشهادات هي غاية في الاهمية ، وتستحق التوقف عندها . لقد كتبت « بياتريكس بيك » مؤخراً تقول : « كنت وانا مراهقة اقرأ ما يكتب فرانسوا مورياك في تلذذ مضطرب . انه كان يستجيب في آن معاً لنزعاتي نحو الاله والشيطان ، ويضيء بوميض البرق ذاته ضعف الجسد وتوقد الذهن . لقد كان هذا الكاتب يتحلى بشرف رفيع (او فن معجز ، لا فرق) ، هو انه لا يغلّب الرحمة التي لا ينفك المرء يسمع بوضوح نداءاتها المخيفة المبشّرة . وقد جذبتني رواياته النابضة بالخطايا نحو التوبة ، اكثر بكثير مما اجتذبتني اليها الكتابات المدافعة عن الدين ، والنفوس التي تعتبر في غاية الصفاء والطهر . وكنت اقول لنفسي ان مورياك يصف دناءة ذوي الرأي السديد ، ومع ذلك يظل مخلصاً للكنيسة . ان الاسرار المسيحية تظل إذن اقوى من كل شيء (...) واذا كان صحيحاً

---

(١) بطلة إحدى مسرحيات راسين . (المترجم) .

مُوريَـــاك

ان انقاذ الارواح اعظم واجبات الكاثوليكي . فان فرانسوا مورياك المبدع بلا عيوب ، قد انقذ روحه . ومعها بلا ريب ارواحاً كثيرة اخرى[1] ».

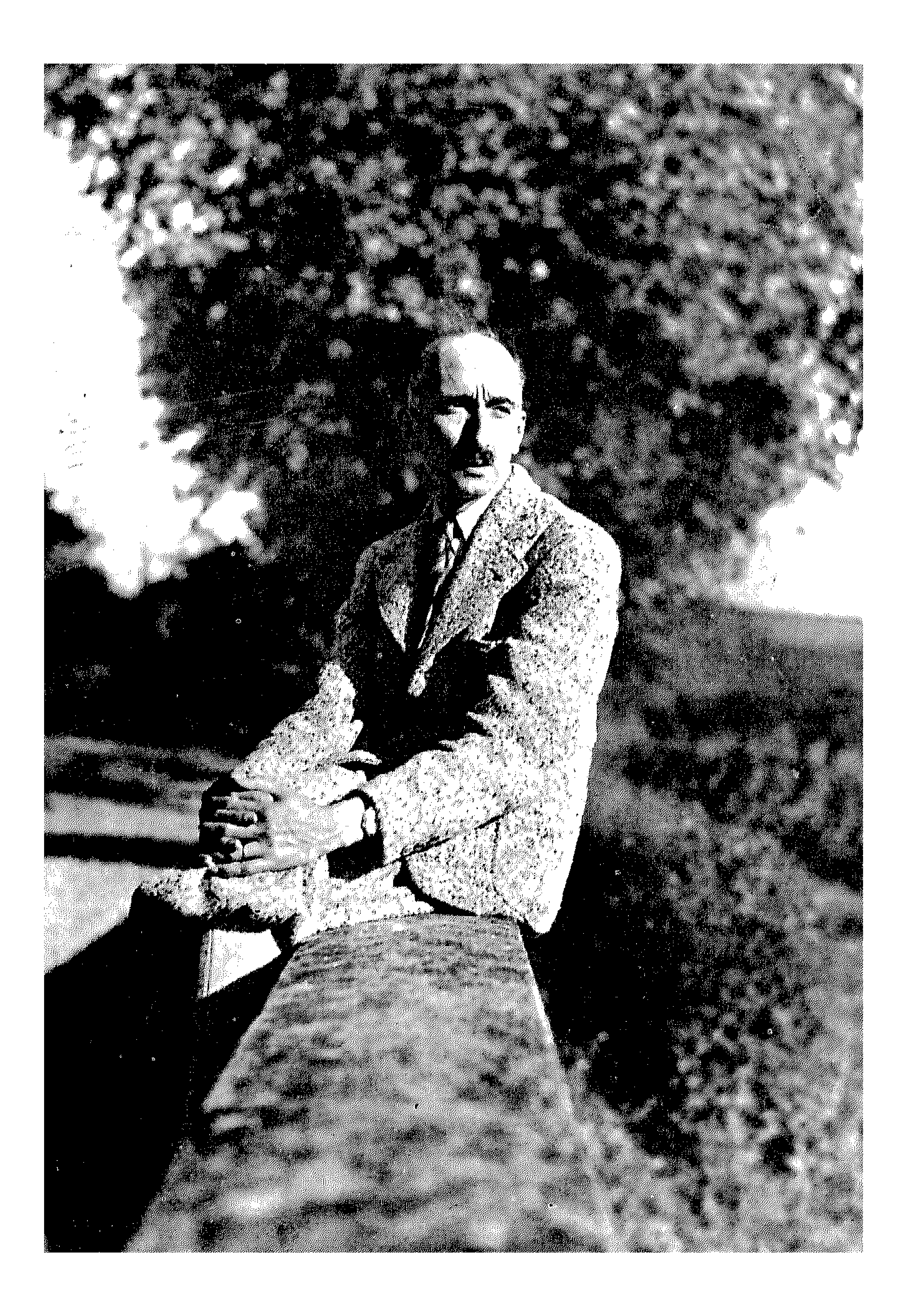
(١) عن « الفيغارو الادبي » ، ١٥ تشرين الثاني ١٩٥٢ .

مُوريـــاك

التجربة الدينية

سبق لي ان لاحظت ان فرانسوا مورياك لا يحاول في رواياته عادة ان يستكشف الوجدان الديني بشكل مباشر . لكنه يفعل ذلك مختاراً في كتاباته التي تتناول الاعترافات الشخصية ، او السيَر الاخلاقية ، او النقد الادبي ، اذ لا شيء يهمّه اكثر من ذلك الاستكشاف . ومع ذلك يجب الاعتراف بأنه في اكثر اعماله الخيالية ارتباطاً بالدنيا ، وأبعدها في الظاهر عن سر الفضائل اللاهوتية المثلث . يبدع شخصياته ، ويهتم بأزماتهم النفسانية ، ويشرح معانيها شرحاً ضمنياً من خلال ايمان المسيحي ورجائه ومحبته . وليس من الغلو ان نقول بان حدس العالم النفساني لديه يستهدي بتجربته الدينية . واما حظنا في فهم اعماله الروائية والمسرحية فهماً عميقاً ، فمتأتٍ مما تركنا نخمنه بأنفسنا فيها .

ان لمورياك قصة . وهي ، كما بالنسبة الى معظم الفنانين الكبار ، قصة داخلية . اما المغامرات والنوادر المتعلقة بحياته كشاب برجوازي من الاقاليم اصبح باريسياً ، او كرجل من رجال الادب والمجتمع المشاهير ، فليست بذات بال . ولقد تعمد ان يحيطها في « المذكرات » بتكتم انيق يتركنا في جهل مطبق بها . لكنه يبوح لنا بما يكفي لاعادة بناء مآسي وجدانه . ومن هنا يأتينا أثمن ما يمكن ان ننتظر منه من اضواء .



مالاغار، خريف ١٩٣٤

مُورِيَــــاك

ونادراً ما لا يكون في اساس موهبة الكاتب الكبير وفكره – ولا سيما اذا كان له مزاج شاعر – تجربة متميّزة ، او صدمة اولى ، او هزة نفسية تمتد وتنتشر فيما بعد عبر آثاره كلها . ولبلوغ مورياك في الصميم ، ليس آمن من العودة الى لحظة استيقاظ حساسيته ، الى الظروف الغامضة التي رافقت نشأته الاولى . فقد تلقى تربية كاثوليكية صارمة في حجر أُم ترمّلت باكراً . وربما تكون تلك التربية قد قمعت فيه الجزء الموروث عن ابيه ، عنينا بذلك طبيعة تميل نحو الجشع . ولقد تركزت حساسيته حول انفعالات تقيّة تثيرها صلوات تؤديها الاسرة ، واحتفالات زاهرة في كنيسة المدرسة الثانوية ، ومواكب زيّاح في عيد الرب . وها هوذا بطل « الجبّة » يقول على لسانه : « كنت في الثانوية واحداً من اولئك الصبية الموسوسين الاتقياء الذين انقذهم من الشر جهلهم به . وحين غدوت مراهقاً ، لم اكن افكر في ان هناك مطمحاً فوق تجنب كل دنيئة ، والتحليق فوق العالم كما يفعل كبير الملائكة » . لكن هذا التلميذ التقي كان كذلك ابن برجوازية ميسورة تقضي اروع العطل في ريف جميل غني حافل بما لذّ وطاب . فماذا يمكن ان يكون اشد اثارة لنفسه من ايام الفصح فوق ارض تتفتح لفرحة التجدد الوثنية ، بينما تغمرها نواقيس الوادي بدقّات الاسبوع المقدس ؟ « كان تحوّل الارض الخفي يضفي على عطلة الفصح صفة خاصة تكفي لان تجعل هذه العطلة أعز على قلبي . فبعد جمود الشتاء في « بوردو » ، كانت الاراضي البراح العارية في شهر نيسان ، المغمورة بالماء ونبات الخنشار الميت تسحرني (...)

فهناك تحت الاوراق الميتة والرمل ورماد الاراضي البراح الحزينة ، راحت الالهة « سيبيل » تتمطى وتتنهد ، « سيبيل » التي يجب ان نحذرها اكثر من اي وجه من الوجوه الغامضة التي نصادفها في المدن . ان المسيح يعلم ارواحنا انه شجرة الكرمة ، واننا فروعها . اما «سيبيل» فتلقن اجسادنا الدرس اياه . وهكذا كان تجدد الرحمة وتجدد الطبيعة يهيجان ويثوران في نفس المسيحي الطري العود ، ويبدأ بين هذين الربيعين عراك فريد ما كان ليتوقف الا بعد ذلك بعدة سنوات . »

واذا عدنا الى مقدمة الطبعة الثانية لـ « الايدي المشبّكة » ، تراءى ذلك التحمس الصوفي عند المراهق الحجول الملجم مشبوهاً في نظر الرجل الذي غدا مسيحياً مدركاً . « اني لأنكر هذه المراهقة الجبانة المفزّعة المنطوية على نفسها . وليس يعني هذا اني انكر ايماني في ذلك الزمان ، كما لا انكر شعري . لكن طريقتي في الايمان كانت تعدل طريقتي في صوغ القوافي ، فيا للسهولة ! صبي يخاف كل شيء ، ويستنشق البخور ، وتستثيره طقوس التناول ، وتغدق عليه الاحتفالات ألوان المتع . وجبنه في مواجهة الحياة ذرائع حافلة بالعبر ! انه يعزو خوره الى اسباب ميتافيزيقية ... لقد جعلت من الله ، وانا مراهق ، شريكاً لي في جبني * » . مما لا شك فيه ان مورياك يطبق هذا

* « لن أحكم اليوم مثل هذا الحكم الصارم على ما في « الايدي المشبكة » من تمتمات وتلعثمات . لكني أعدل فيها بعض التعديلات الطفيفة ، على كل حال . لقد اصدرت مثل هذا الحكم منذ حوالي خمسة وعشرين عاماً .

مُوريَــاك

التشخيص الفظ على ربيعه « العشرين » . واظنه اكثر رحمة بالصبي الذي كان يتفتح بسذاجة لانفعال الايمان ، والذي كان قلبه الغض يقطر دماً قبل الاوان امام « لقاء الربيع مع المخلّص » في اضواء عطلة الفصح ، من جرّاء تمزّق سوف يعمّقه تقدم السن .

لقد غادر مورياك مدينته بوردو ، وتلّته ، واراضيه البراح في غسكونيا وهو في سن العشرين . وها هوذا ملقى في باريس ما قبل عام ١٩١٤ ، باريس مركز الحياة الاجتماعية والفكرية . وقد انتزعه خياله وحواسه وذكاؤه ، لمدة من الزمن ، من تقاليده التي كانت تحميه . وقرأ مؤلفات « باريس » و « جيد » ، فبدأ لديه اغراء « عبادة الأنا » ، والصراع بين الفرد ومحيطه ، والثورة على حذر البورجوازية الكاثوليكية الضيق الجاف . ثورة مؤلمة ، وصراع فظّ ، لان القلب كان متفطّراً حقاً . لكن التجذّر في الاشياء والحقائق التي في مسقط الرأس كان قوياً . ولم يكن الشاب ليقصّر ايام العطل في العودة الى كرمته ومنزله . وهناك كان ينتظره صراع آخر اخطر واشد الفة ، ذلك الصراع الذي شقق

وحين يعمينا الالم في بعض الاوقات ، نبحث عن مسؤولين . وهؤلاء اما ان يكونوا ذوينا ، واما ان يكونوا مربينا ، ومع ذلك لا نتورع عن وضعهم موضع الاتهام . واني لاكتشف الآن في مراهق « الايدي المشبكة » من الهواجس والتزمت اكثر مما كان يبدو لي حينذاك . وان يخضع للشر فما كان ليستسلم اليه . لا ، لم يكن الدين بالنسبة اليه مورد لذات وحسب . كان نيراً ، لطيفاً جداً بالطبع ، ولكنه نير . وكان عبئاً ، خفيفاً ولا ريب ، ولكنه عبء » .

مُوريَــــاك

قبل ثمانين سنة على الارض الغسكونية نفسها قلب «موريس دو غيران»، الصراع بين مذهب الحلولية والمسيحية. تجاذبات متناقضة بين فرحة الجسد وفرحة الروح، وهو ولا ريب الصراع المستمر منذ ان صاح صوت فوق البحر «لقد مات پان[1] الاكبر» في الوقت الذي لم يكن فيه سوى جريح، بعد ان قاتله إله الجلجلة، ولكن دون ان يقضي عليه. الصراع الذي من اخص خصائصه في ادبنا المعاصر، عند «جيد» و «كلوديل»، كما عند «مونترلان» و «مورياك»، انه وعى ذاته وعياً واضحاً، وغدا مصدراً من اكبر مصادر الالهام. ولقد استعار مورياك من مؤلف «الصانتور» اسلحته، وهي كرة من لهب معلقة بين الارض والسماء، كرة من لهب هي رمز للحب. فالرهان الحقيقي على العراك ليس في الاختيار بين الحياة التي هي في صف النشوة الطبيعية، وبين الشريعة المتمثلة في طاعة الانجيل، وانما هو اختيار بين حميّتين، بين قاعدتين. ان الديانة المسيحية هي «ايضاً» ديانة «الحياة»، ودرب الى الفرح. كما ان طريقة سامية وكلية لوعي الالتصاق بالطبيعة، وفهم المذهب الارضي في السعادة والقوة، هي «ايضاً» زهد وارادة على تجاوز النفس. وليس

---

(١) هو ابن «هرميس» و «بينيلوب» التي اغواها في شكل تيس معزى. وقد ولد «پان» بساقي تيس وقرنيه ووبره. وكان ظهوره يثير الذعر في النفوس. وقد جسد فيما بعد فكرة «الكل الاعظم» او «الحياة الشاملة». (المترجم).

خيار المسيحي مأسوياً الى هذا الحد ، الا لأنه في قمة الوجدان السامية ، خيار بين حميّتين ، بين كمالين .

وبالاجمال فان قلق مورياك بشأن المسألة الخلقية التي تتلخص في خط سلوكي يجب المحافظة عليه ، وفي نظام من التعاليم والنواهي يجب التقيد به كان اقوى من ان ينضب . لقد كان قلقه موجهاً بعمق نحو مسألة تتحكم بحركة النفس ذاتها ، المسألة الروحية المحض التي هي مسألة اختيار لون من الوان الحب . « ما من احد يمكن ان يخدم سيدين » . الله أم « مامون » ؟ أ « پان » و « سيبيل » إلهـا الطبيعة الجسدية الطافحة بالخيرات والنشوات ، أم الاله المصلوب المفعم بالرحمات والسلام ؟ ذلكم هو تمزّق المسيحي الواعي ، وذلكم هو عذابه . وذلكم هو ايضاً معين الشجى المورياكي ، وسر عازف الارغن لراحة النفس ، العازف على وترين ، الذي يقابل تارة ، ويناغم طوراً ، بين موضوعات الشهوات الدنيوية والمحبة الالهية ، بين اله الحب الجسدي ، وتقليد العشاء السري الذي كان المسيحيون الاوّل يتبادلون خلاله قبلات المحبة والسلام . وقد ظهر ذاك التوتر منذ الروايات الاولى . لكن حدته لم تظهر ابداً الا في « القبلة الى مجذوم » . ومعها بدأت سلسلة من الحكايات الحادة الكئيبة ، لا تجد فيها غير شهوات مذنبة عنيفة . وبدأت كذلك الانوار المسيحية تتراءى ، وتمس كتل الظلام دون ان تخترقها ، وكتل القنوط المتمثلة في قلوب اشخاص الروايات مثل « فرنان كازناف » ، و « ريمون كوريج » ، و « ماريا كرو » ، و « تيريز ديكيرو » ، في حكايات تثير الشعور بالظمأ

مُوريـــــاك

مثل طرق مقاطعة الاراضي البراح الرملية التي يسير عليها غالباً اولئك الابطال البائسون . وحينئذ يبدو موريالك حاملاً مسيحيته وكأنها سهم مربوط الى خاصرته ، ويحس المرء ثورته بصورة خاصة في « اقدار » ، حيث لا يصيب الغضب الخفي نفاق المسيحيين الرديئين وحدهم ، وانما يبلغ تصلب المؤمنين المخلصين ، وحتى قسوة الصليب .

ومع ذلك ، ففي عام ١٩٢٨ اخذت تستفحل ازمة داخلية طبعت اولاً كتابه « حياة راسين » . وفي مكنة النقد المتغطرس ان يأخذ دائماً على هذه السيرة المؤثرة طابعها الشخصي المغالى فيه . ولا ريب ان اسقاط حالة موريالك على حالة « راسين » تزيف التاريخ بعض التزييف . فـ « راسين » هو ذلك المسيحي الذي حمل طوال حياته ذكرى صبا تقي ، ما لبثت ان مزّقت قلبه يوم ظن بأن السعادة لذة . ولم يطل به الامر ، هو التلميذ العزيز على قلب رهبان شيوخ ، وعلمانيين اتقياء ، طبعوه بطابع التقشف الجنسيني ، ان ثار عليهم بقسوة حين بلغ عمر الشهوات ، دون ان يكف عن محبتهم في الخفاء . ثم غدا ذلك الفنان الذي استمد إلهامه الصادق من طبيعته الشهوية واعماق نفسه الكدرة ، او هذا على الاقل هو ما استنتجه موريالك . واعتقد ان استنتاجه اقل تناقضاً واكثر مطابقة للواقع من استنتاج « جيرودو » الذي اراد ، على العكس من ذلك ، ان يرى في راسين مثال الفنان الصافي الذي يعمل خارج التجربة التي عاشها ، وبفضل معجزة الاسلوب وحدها . كيف كان بامكان مؤلف « تيريز ديكيرو » الا يحاول رؤية نفسه في مرآة مؤلف « فيدر » ؟ لقد عاد هذا ،

وهو في السابعة والثلاثين ، الى العقيدة المسيحية ، ضارباً عرض الحائط بملذات المسرح والفوائد التي يعود بها ، ليخدم مليكه ويربي اولاده ويعبد ربه ، ولم يكتب من حينها الا اناشيد روحية ومأساتين دينيتين .
وقد هزّ تأمل حياة « راسين » مورياك ، واعترف بأن ذلك التأمل قرّبه من المسيح . فهل كان عليه اذن ، لكي يحتذي مثال سابقه الى النهاية ، ان يحطم ريشته ويحكم على نفسه بألا يكتب سوى قصص حب كبير عفيفة ؟ هل كان عليه ان يعدل عما هو عماد موهبته ، اي غرابة الهاوية الكدرة التي يعيش فيها الانسان ، ونزعة النفس المزدوجة الى الوحل والسماء ؟ من الجلي ان حرص الفنان اعاقه اكثر من اي تعلّق طبيعي ، وان لذة الكتابة كانت ، من بين جميع انواع « التسلية » ، هي الاقوى مقابل ترك المصير بين يدي الله .
وكان « كلوديل » في الحقبة القلقة التي سبقت « الاناشيد الكبرى » قد اصطدم بمعضلة من النوع نفسه . لكنه تخلص من كل تأثير جنسيني ، وخففت حدّة شعوره بضرورة اذلال الطبيعة امام الرحمة ، معتبراً ان هذه الطبيعة قد أعيدت الى نصابها الحسن ، متبعاً في ذلك اكثر نظارات القديس توما تفاؤلاً . فما ان اهتدى بالمسيح ، حتى تمكن ان يغدو شاعر الدنيا المتغني بالخليقة ، دون ان يضحي بشيء من حميته الدينية او وجدانه الفني . وعلى العكس منه ، فان مورياك المتسلح بلاهوت أشد سوداوية ، الحامل بين جوانحه قلباً كدراً ، سوف يظل معرّضاً للخوف من أنه ليس في امكان شاعر الطبيعة إلا ان يكون شاعر الخطيئة .

وبالرغم من هذا فقد «اهتدى»* بالمعنى الذي يتحدث به عن اهتداء «بسكال» و «راسين». ولا يعني هذا العودة عن عدم الايمان الى الايمان، لانه لم يفقد إيمانه قط بالمعنى الحرفيّ للكلام، ولا قاطع الكنيسة. ولكنه يعني الانتقال من الاعتدال الى الحماسة، من التصرف الشكلي الى العطاء الصادق، وخصوصاً من القلق الى السلام. وتعتبر رواية «آلام المسيحي» الصادرة في «المجلة الفرنسية الجديدة» عام ١٩٢٩، آخر صرخة مرارة للقلب الذي يدافع عن نفسه، و «سعادة المسيحي» الصادرة بعد اشهر قليلة نشيد فعل الرحمة والغفران – قد يقال ان هذا النشيد متصنع بعض الشيء – لقلب يقدم نفسه للآخرين. اما «الله ومامون» الصادرة عام ١٩٣٠ فتختصر المأساة وتخلص الى الله. وفيما بين ذلك، أي في عام ١٩٢٩، يمكن اعتبار «ما كان قد ضاع» اول رواية تتوازن فيها النداءات

* «لا أظن في وسع احد ان يتحدث عن هداية في لحظة من لحظات حياتي. فما فقدت ايماني على الاطلاق. ان الخطيئة وحدها استطاعت ان تقطع مجرى اخلاصي في متابعة الطقوس والاسرار الدينية. وكان إيماني الحاد القاطع يمنعني عن بعض التسويات والوسائل المتبعة لإراحة الضمير. واذا كانت الهداية تعني العودة إلى الاعتقاد، فانا لست بمهتد. امــا بالمعنى البسكالي للكلمة، وكما يقال عن اهتداء «بسكال» الاول والثاني، فانا لم انفك ابتعد واقترب واخرج وادخل. ولنقل اني سمحت لنفسي بذلك. فتقلبات القلب التي حللها «بروست» تلعب دورها كذلك في علاقاتنا بالله. وبهذا المعنى لا يتوقف المسيحي ابداً عن الاهتداء.»

المتناقضة في السيكولوجية المورياكية : فمن ناحية . هناك التحليل القاسي للنفوس المتروكة نهباً لحواسها وغرورها وشحّتها ، ومن ناحية ثانية ، هناك الفكرة التي يبوح بها بصراحة ، فكرة التطهر والاخلاص المتناهي في المحبة الخارقة للطبيعة . ولا يستنكف الروائي عن النظر نظرة قاتمة وعنيفة احياناً الى الشهوات الانسانية ، لأنه يحكم بأنها متوافقة مع الحقيقة ومثقلة بالاحتمالات المأسوية . لكنه يكثف كذلك حدّة النور الالهي الذي يسلطه على المأساة ليجلو مغزاها ، واحياناً ليوجه حل عقدتها نحو الامل الذي يوحي به السلام ، كما في « عقدة الافاعي » اكمل روايات مورياك واحسنها انجازاً .

مُوريـــاك

حول سكولوجية روائية
مرتبطة بلاهوتية الخطيئة

اليكم تطور فرانسوا مورياك الروحي موجزاً في خطوط عريضة. لكن لا ينبغي نشدان اعراض هذا التطور في هيكلية اعماله الادبية، لان الاسلوب لم يتغيّر قط، مذ ثبّته في اشراقه المتساوي على الدوام، امتلاك الكاتب لناصيته منذ فجر حياته الادبية. ومن الملاحظ كذلك ان العناصر النفسانية ذاتها موجودة منذ اول رواياته حتى آخرها، مع اختلاف في كمياتها. ومقصد تلك النفس التي غدت مسيحية بدرجة خارقة للمألوف، والتي يكشف عنها المغزى النهائي للآثار الادبية، يتجلى ولا ريب في اختلاف النبرة من رواية الى اخرى، ثم في تقوية النداء الالهي.

ولنحاول ان نحدد اكثر فاكثر ذلك المغزى للآثار الادبية. انه نفساني ولا شك. لكن السيكولوجية، مذ حاولت ان تتعدى نطاق وصف ظواهر الوجدان الى نطاق شرحها، غدت مرتكزة بالضرورة الى الماورائية، بل الى اللاهوت في اكثر الاحيان. وعليه فاننا نعثر في صميم اعمال مورياك الادبية على لاهوت للخطيئة. فمن المعلوم

ان الخطيئة هي من حيث « الشكل » خرق للشريعة الالهية التي تواجه الرغبات البشرية بالتحريمات ، وهي من حيث « الاساس » رفض من المخلوق لخالقه ، وانحراف غير مشروع من المرء نحو ذاته او نحو منجزات حب هو من نعم الله وحده . ويميل علماء اللاهوت ، حسب اهتمامهم بهذا الجانب من جانبي الخطيئة او بذاك ، اما نحو « الاخلاقية » التي تجعل من الدين خاصة نظاماً من المحرمات والقواعد . واما نحو « التنسك » الذي يرى في الحياة الدينية قبل كل شيء ، انفتاح الروح على الرحمة الالهية ، والحث على الورع والعبادة . وهذه النزعة الاخيرة هي نزعة القديس اوغسطين الذي كان ينادي على الدوام بضرورة الرحمة الالهية ، ويحصر كمال المسيحي في المحبة ، وينظر بصورة خاصة الى الخطيئة على أنها ضعف يعتور الحب . وعلى ضوء هذا يجب ادراك احداس مورياك النفسانية . فهو مقتنع من ناحية ان مرد قضية السلام الى العثور على سبل الحب ، وان الذين يحبون ويلتهبون بالحب هم وحدهم الذين لهم شأن في نظر الله ، اذ انه « خير للمرء ان يلتهب من الا يشعر بشيء » ، والمسيح يلفظ الفاترين ، و « المسيحية ترفض القلوب التي هي بين بين » . وهو يعتقد من جهة ثانية ان الخطيئة — ليس دائماً وانما في اكثر الاحيان — من صنع قلب ضل الطريق ، وانها ، بتعبير اصح ، خطأ اكثر مما هي خبث وشر ، وانها ، على اصح الوجوه ، نداء حب تائه .

وتبدو هذه الفكرة هامّة ، بل اساسية ، لتحديد السيكولوجية المورياكية ، وللتمييز بين وجهة نظره ووجهة نظر « برنانوس » .

مُوريـــاك

ف « برنانوس » ينظر الى الشر على انه قوة ايجابية . وهو يكشف في صميم القلب الانساني عن غريزة خبيثة ، ونزعة شريرة تذهب الى حد تحطيم الذات ، الى حد الحقد والقنوط ، ويرى ان القدرة الخارقة للغوث الالهي هي القوة الوحيدة القادرة على جعلها تتوازن . ومنذ البداية على الاقل ، يبدو موقف مورياك اقل تشاؤماً ، أو هو ، من وجهة اخرى ، اكثر انسانية ، انه موقف يستتبع مقداراً اقل من الاحتراس إزاء الطبيعة البشرية . وكما ان النفس تنزع في نظر افلاطون بصورة طبيعية نحو « الجمال » و « الخير » ، وانها لا تختار الشر والقبح الا لجهلها ، كذلك فإن النفس المضللة بشهواتها ، المحرومة من رحمة الله ، تندفع في نظر مورياك نحو الخطيئة ، لجهلها بالموارد الحقيقية المتعطشة اليها . واغلب الظن ان اثر « بودلير » المباشر اظهر هنا من اثر افلاطون والقديس اوغسطين . فقد كتب « بودلير » : « ان رذائل الانسان ، مهما افترض فيها من بشاعة ، تتضمن الدليل (حين يقتصر الامر على انتشارها انتشاراً غير محدود) على ولعه باللامتناهي . لكنه ولع ضل الطريق ». ويضاهي تلك الاقوال هذا النص ، وكثير غيره ، من « الملائكة السود » : « ان الذين يبدون منذورين للشر قد يكونون اصطفوا قبل الآخرين ، وبمقدار ما يكون عمق سقوطهم ، يتحدد مصيرهم . »

ومن خلال هذه المنظورات ينصبّ نفور مورياك بشكل عفوي على اولئك الذين فقدوا الحب ، سواء بالتحجر داخل الشر ، او بفعل انانية جبانة ، او بسبب عدم الادراك والرتابة ، او ، بكل

بساطة ، بسبب اعتياد التمسك بالشكليات الدينية . فهؤلاء هم الملاعين حقاً ، وهؤلاء هم ابناء العدم . انهم بطبيعتهم ، او هم اصبحو بالتعود ، وكأنهم لا وجود لهم . وعلى العكس من ذلك فانه يخص باعجابه المسيحيين الحقيقيين الذين عرفوا الحب الكامل الصافي ، ويدّخر كنوزاً من التسامح للخطاة الذين ما تزال تشهد شهواتهم ، حتى وان كانت مذنبة ، على تعطش الى الحياة ، وعلى استجابة لنداء اللامتناهي . وعليه تنقسم شخصياته بشكل طبيعي الى اربع فئات كبرى .

فهناك اولاً الشخصيات ذات الارواح القدسية التي وجدت سلام المسيح على الفور ، وان تم لها ذلك بمقادير متفاوتة . وهذه الشخصيات نادرة في آثاره الادبية الاولى ، وقليلة اجمالاً في مجمل الآثار . ويتألف معظمها من الشبان مثل « برتران لاروسيل » و «آلان فوركا » ، والشابات العذارى والمتزوجات مثل « لوسيل دو فييرون » ، و «عمانويلا دو بارتا » ، و « تيريز ديزيميري » او « بلانش فرونتناك » ، ورهبان مثل « الاب اردوان » او « الاب كالو » . وهم هنا ليشهدوا على وجود النورانية وليوضحوا مآسي الآخرين . لكنهم لا يشغلون الصفوف الامامية في مجرى الاحداث ، لانهم في الواقع لا يطرحون مشكلة ، ولا يشكلون مأساة . فالمأساة تتمثل في النزاع بين شهوات القلب الجسدية ومحبة الله . وقد اجتاز هؤلاء البرزخ ، او على الاقل اتخذهم مورياك حين اجتازوه واصبحوا في مرفأ السلام (لا كما هي الحال عند «برنانوس» الذي يختار شخصياته وهم في إبان الخطر المتمثل في نقلتهم الصوفية) . ويحدث من جهة اخرى ، ولكن بشكل استثنائي ، ان تكون تلك

الارواح القدسية مجرد ارواح طاهرة نقية ، منفتحة على حب الاشياء والكائنات ، سابحة دون وعي منها في رحمة شبيهة بالبراءة الحيوانية ، بفرحة قبل السقوط . واولئك امثال الصبي « لوقا » في « عقدة الافاعي » او « هاري فاننغ » في « اسموديه » ، باعتبار ان هذا الامتياز لا يمكن ان يتم الا للنفوس الغضة او التي قاربت المراهقة .

وبعكس ذلك هناك الفئة الثانية ، وهي فئة النفوس الميتة . فبعضهم ، مثل زوج « تيريز ديكيرو » او والد « غورناك » ، مغرقون في حسن المظهر ، واكل اللحم الجيد ، والجري وراء المال ، وكلهم صفر من الناحيتين الفكرية والاخلاقية . والآخرون الذين افسدهم تعوّد الفوضى ، واصابتهم المتع الجسدية بالانحلال ، مثل « بوب لاغاف » في « اقدار » ، وسادة المجتمعات الفاسدين في « ما كان قد ضاع » . وهذه النفوس الملعونة ليست هي الاخرى بصورة عامة سوى شخصيات ثانوية في مجرى الاحداث . اذ كيف يعقل ان تصلح هذه المومياءات المتعفنة ، المتقوقعة في انانيتها ، المفرغة من الحب والحياة ، لأن تكون شخصيات مأسوية حقاً ؟ انها لا تغدو كذلك إلا في اللحظة التي يستعيد فيها الخاطئ المتحجر ، مثل « دانيال تراسيس » في « نهر النار » ، و « ارفيه دو بلينوج » في « ما كان قد ضاع » ، و « غاردير » في « الملائكة السود » ، شعوره بشقائه ، في ومضة من ومضات الوجدان ، ويرى الهاوية التي يندفع نحوها ، وبروز عجز ارادته التي استعبدتها الرذائل والمجون . لكن ذلك لا يحدث إلا لأنه ما زال في النفس رمق ، وربما فرصة اخيرة للسلام . وها هي

هذه الفئة تقترب من الفئة الثالثة للشخصيات المورياكية ، وهي اكثرها عدداً وتميزاً ومأسوية وقرباً الى قلب الروائي ، فئة الذين أضلهم الحب .

انهم كذلك خطاة ، ولكن بسبب الضعف والبؤس ، اكثر مما هم بسبب فساد الارادة . وذلك اما لان محيطهم خيب آمالهم وجرّحهم بحرمانهم من حنان كانوا في حاجة اليه ، واما لان انحلال الاخلاق في محيطهم انتقل اليهم ، واما — بشكل أعم — لأنهم فقدوا الاحساس بالرحمة فتركهم ذلك « لنهر النار » الذي تمثله الشهوات . ومورياك مفعم بالتسامح مع هؤلاء ، بشرط وحيد ، هو ان يصمد في قلوبهم المسعورة قلق خفي ، وشرارة حب ، بل يمكن القول بأنه متواطئ معهم . فهم بالنسبة اليه النعجة الضالة المذكورة في الانجيل التي هي أعز على قلب الراعي من التسع والتسعين المخلصة للحظيرة . انهم بالضبط « ذلك الشيء الذي فقد » والذي تمنى « الفادي » ان يخلّصه . وحسه المسيحي الصادق يتشبث بهذه النفوس كما يتشبث بتلك التي تستدعي المحبة بشكل كامل . وقد اختارها حسه الفني في الوقت ذاته ، لأنها اكثرها اهمية وتمزقاً وتعرضاً للاخطار ، وهي الوحيدة المأسوية حقاً . وتلك النفوس غالباً ما تكون من الشباب ، لان الشبيبة ، شأنها شأن الربيع ، هي في آن معاً سن الوقوع في الوحول والاغراء والعواصف ، والسن التي تتطلب النقاء بصورة اكثر حميمية وتجرداً . وهناك كذلك نساء تعرّضهن حساسيتهن التي غالباً ما تدعكها الحياة ، لعاصفة الشهوات . واحياناً هناك رجال ناضجون مثل « الدكتور كوريج » او بطل « عقدة الافاعي » يقعون في تجربة الاغراء نتيجة

ارهاق او جرح نفسي . والجدير بالذكر ان جميع خطاة مورياك هؤلاء ، ليست الغطرسة بمعناها الحقيقي هي التي تستهويهم . فقد لا يكون ابدع سوى شخص واحد تسيطر عليه روح الغواية ، وجنون شيطاني لسكنى الارواح ، عنينا « السيد كوتور » وذلك في نطاق المسرح . فهو على العموم يترك الغطرسة وخطيئة الروح لـ « برنانوس » . اما الذين يبدعهم هو ، فهم مخلوقات تستعبدهم الاطماع والشهوات الجسدية . انهم بخلاء شهوانيون فجرة . فرهيب هو البخل الذي يصب سلطان الحب على الاشياء وحدها ، وسرعان ما يبلبل القلب ويجففه . ورهيب هو الشبق الذي يحول بين الاجساد وبين الارواح . اما الحب بين الجنسين ، حتى وان كان خاطياً ، فانه ، حين يتخذ شكل الحنان والعاطفة ، اقل خطراً ، لانه يبقى مفعماً بالكوامن الروحية .

قد لا ينتهي المرء من ذكر النصوص التي يظهر فيها للتأرجح المأسوي بين نوعي الحب عند خطاة مورياك وخاطئاته على الاخص ، سواء منهم من يأخذ ، مثل « جيزيل دو بليي » ، في « حب الارجاس حباً ملتهباً ، وهو مخلص في « التدلّه بحب الله » ، ومن هو ، على العكس من ذلك، سادر في الشر ، مثل « ماريا كرو » او « تيريز ديكريو » ، ويحتفظ مع ذلك في اعماق قلبه بالحنين الى الموارد الصافية . فها هي ذي ماريا تتنهد قائلة : « كائن يمكننا مس شغافه وامتلاكه ، ولكن ليس بالجسد ... ويمكنه امتلاكنا ... » . « انا ، تيريز ، التي قد اعطي حياتي مقابل ربع ساعة من الحنان البعيد عن كل غاية ، والتي لم اتمن شيئاً في العالم غير ذلك ! » وكذلك

« ايرين دو بلينوج » التي دفعها القنوط الى الانتحار ، ربما كانت تعرف في آخر لحظات وعيها « ان تدعو اخيراً هذا الحب باسمه الذي هو فوق كل الاسماء » . وما كان للروائي الذي ابدع نفسي الاب « كوريج » وابنه المتلهبتين ، إلا ان يتمنى لهما امراً واحداً : « كان ينبغي قبل ان يموت الاب والابن ان يتجلى لهما « ذلك » الذي يدعوهما — دون علم منهما — وينتزع من اعماقهما ذلك المدّ الملتهب » .

واليك اخيراً الفئة الرابعة القابعة في احدى زوايا لوحة التنسك ، فئة الذين سمعوا قول المسيح ، وتلقوا العمادة ، وتقبلوا قوانين كنيسته ، وجربوا الاتحاد السري المقدس ، اي المسيحيين المخلصين الذين هم ذوو السداد في الغالب ، والورعون في بعض الاحيان . هؤلاء كان على مورياك الروائي الكاثوليكي ان يضعهم الى يمين « الاب » ، لكنه لم يفعل ، لسبب يهون فهمه ، ويتعلق بشكل كامل بلاهوتيته . فبقدر ما يميل الى الرحمة للخطاة اذا لم يكن ينبوع الحب قد نضب في نفوسهم ، تراه مدفوعاً للظهور بمظهر الصارم بالنسبة الى الاخلاص في ممارسة الشعائر ، وحتى بالنسبة الى الورع ، اذا هما انحصرا في الشكليات ، وفي حسن الطوية المزيف عند الفرّيسيّ . وقد اخذ عليه ذلك الفيض من الكلام القاسي الذي يرهق به هؤلاء المسيحيين المتمسكين بالطقوس ، الذين يؤدون واجباتهم الدينية بالطريقة والروحية اللتين بهما « يدفعون ضرائبهم » . ذلك لان هذا الشكل السطحي من اشكال الانخراط الديني ، المرتكز على التمسك الاجتماعي بالشكليات ،

مُوريـــاك

يخمد الشعلة الاساسية في الروحية المسيحية التي هي محبة وعدل وخشوع . ومع ذلك فقد يكون من الظلم لمورياك ان نرفض انه جهد بامانة لاستنباط ما في الورع من قيم حقيقية ومأسوية داخلية ، حين يكون الورع خالصاً ، وحين يكون سعياً متزمتاً عسيراً الى قداسة لمّا تبلغ ، وحين يجهد في حفر اقنية الاعمال الفاضلة والعادات المستحبة ، وفي الحفاظ عليها مفتوحة امام برزخ الرحمة . فليست « بريجيت بيان » (الفرّيسيّة) وحشاً ولا هي مرائية . انها تملك الايمان ، وتهفو الى الخير ، لكنها تترك نفسها تضل من جراء كبريائها ، كما هي حال الخطاة الآخرين بسبب خطايا اللحم والدم . أليست اكثر صفحات مورياك اثارة للشفقة ، تلك التي تعترف فيها « مدام دو بلينوج » ، في « ما كان قد ضاع » ، بأنها دفعت زوجة ابنها غير المؤمنة الى الشر بسبب ما في روحها هي الناقصة التقى من جفاف ورعونة ؟

ان المرء ليدرك ان يكون تحيز مورياك الواضح ، المنصب على الخطاة والمتشنج إزاء الممارسين ، قد باغت القرّاء الكاثوليكيين واحنقهم وابعدهم عنه باديء الامر . لكن هؤلاء القرّاء ما لبثوا ان انصفوه ، وغالباً ما كان للرهبان هم البادئين بذلك ، لان اشتغالهم بالاعتراف جعلهم ولا ريب يرون قسوة تحليلاته اقل إثارة للبلبلة ، ومحبته السامية اكثر قابلية للفهم . وقد اعترف المسيحيون المخلصون بأنه ليس من الانصاف ، حين يدعوهم كاتب في غاية الوعي الى الكشف الطبي عن الوحوش الصغيرة الكامنة فيهم ، ان يقرروا بأنه هو المريض ، واقروا بأن عليهم بالاحرى ان يتعلموا منه ممارسة افضل لفحص ضمائرهم .

وعلى كل حال فما من احد ، ولا سيما من جانب الكنيسة ، يمكنه مدافعة الجدة والفائدة الكامنتين في سيكولوجية روائية تهتدي بنور لاهوتية في غاية الدقة .

ففي ختام « عقدة الافاعي » تكتب « جانين » التي شهدت لحظات جدها الاخيرة رسالة الى الاسرة تدافع فيها عن هذا العجوز الذي عاداه ذووها ، تقول فيها : « دعوني اقل لكم لماذا حكمت اخيراً بانه كان محقاً وكنا المخطئين : لقد كانت قلوبنا حيث هي خزائننا (...) وظلت مبادئنا منفصلة عن حياتنا (...) فاتجهنا بكل قوانا الى الخيرات المادية ، بينما كان جدي ... ترى هل تفهمون لو قلت لكم بأن قلبه لم يكن حيث هي خزانته ؟ » ولو ان المرء بحث عن عبارة يلخص بها مغزى اعمال مورياك النفساني والروحي ، لكانت تلك السطور خير ما يعثر عليه . فلم يكن غرض الروائي الثابت الحميم — كما كان غرض « برنانوس » الاشد طموحاً وتطلعاً — ان ينفخ الحياة في قديسين ، ولا ان يكتشف ، في محاباة ، بؤر الخطيئة ، وان كان الامر يبدو كذلك للوهلة الأولى . وانما وجد ان الاكثر مأسوية ، والأحق بالتصوير في عالم النفوس ، هو اخفاق المتعطشين الى الحب اخفاقاً مزدوجاً ومتكاملاً ، اي إخفاق اولئك الذين يحتضنون كنوز الدنيا بجنون لا يعرف الركون ، ثم إخفاق الذين عمّدهم المسيح ، وهم في اعماق قلوبهم مستعبدون بوداعة لـ « مامون » . وهنا يتضح معنى الانصاف في القول بان شخصياته شخصيات « مكبوتة » . ولا يعني ذلك ان حميتهم النسكية قد تكون بديلاً

عن قابلياتهم الجسدية (قد لا يكون ذلك صحيحاً الا بالنسبة الى بعضهم مثل «اليزابيت غورناك» في «اقدار»، او الراهب في «شيطان المعرفة»)، وانما على الاغلب ان دناءتهم، وشحهم، واطماعهم الحسية هي البدائل عن حب روحي نقي سبق ان زُيّف في إبّان تفتّحه. زيّفه كبرياؤهم أو كسلهم أو جبنهم، أو اسهمت في تزييفه غالباً مواقف الاستنكار الناجمة عن عدم اهلية المسيحيين المتزمتين، اذا لم نقل بأنها كانت سبب ذلك التزييف. وعليه يكون الكبت المورياكي، بطريقة ما، كبتاً للرحمة.

مُورِيَــــاك

شهادة بحق الانسانية

ما هو الانسان ، وما معنى حياته ؟ ليس من كاتب كبير لم يقدم بين سطور مؤلفاته جواباً على هذين السؤالين اللذين ستظل تطرحهما باستمرار كل حضارة وكل ثقافة . وها هو فرانسوا مورياك يقدم في منتصف هذا القرن الكدر المضطرب شهادة ما برحت مسموعة . فالشبان يتصنعون الاعتقاد بانه يرتبط بفصل تقادم عهده من مغامرتنا في هذه الدنيا ، ويعالج مشكلات اكلَ الدهر عليها وشرب ، وهذا دليل على سوء نياتهم او على جهلهم . فقد حق لمورياك بازاء مزاعم الادب الحديث ان يقول انه ما كان ينتظر هذا الادب ليكون الروائي الذي يعالج أمور الانسان بشكله المحسوس ، والغارف من المنبجسات غير المتوقعة ، ومبدع الاقدار ، اذ جعل من الرواية « شهادة فردية لا بديل عنها » ، وجعل عالم الجسد يغدو من خلالها محسوساً وملموساً ، وتملّص في اثناء تصويره للوجود من كل ما يقصد من ورائه التدليل والاثبات ، وعرف كيف يؤدي بالوسائل الشعرية وذوق الاديب ، ما يجهد اليوم في ادائه بشكل سمج ، وفوق انقاض اللغة والنحو ، وبطريقة فيها احتقار للفن ، شبان ادعياء . وعلاوة على ذلك ، فاذا كان صحيحاً ان المدرسة الادبية الجديدة تستحق الثناء لأنها نمّت

بكثافة وجدّة فكرة « الغير » ، واذا كانت قد اوضحت بعمق عجز الناس عن امتلاك أنفسهم بوصفهم اشخاصاً ، واظهرت تلك المحاولة الدنسة التي يقوم بها كل منهم لتحويل الآخر الى « شيء » ، فان مورياك ما يزال يستطيع المفاخرة بأنه بيّن عشرين مرة ، ومن غير ما تبجح ميتافيزيقي ، المأساة الكامنة في استحالة بلوغ النفوس من خلال الاجساد ، وبأنه وضع في قلوب مخلوقاته عطش « صحراء الحب » الذي لا يرتوي . وقول سارتر « الجحيم هي الآخرون » لم يعلّم مؤلف « عقدة الافاعي » و « المفتقرون الى الحب » شيئاً لم يكن يعرفه من قبل ، او لم يعمل على الرمز اليه .

ومع هذا ، فان قانون القدر والوحدة الذي يجثم على عالم مورياك، كما يجثم على معظم العوالم الادبية اليوم ، لا يحتم ان تتخذ مؤلفاته سمة البشاعة الخلقية الصرف ، او سمة التقزز من الانسان وازدرائه والقنوط منه . فهو يملك قدراً كبيراً من تقاليد الثقافة الانسانية والاخلاقية المسيحية يجعل الكآبة تتوازن بفضل الرجاء ، والجفاف يتوازن بفضل المحبة ، والاحساس القلق بالقوى الخفية القدرية يتوازن بفضل الثقة بقوتين توفران الراحة والسلام، ألا وهما ارادة الانسان ورحمة الرب . ولهذا يخطئ كثيراً من يظنه متشائماً لايثاره المواقف الفظة والنفوس المتوحشة . وتشاؤمه هو ، على الاقل ، وفقاً لتقاليد كبار الاخلاقيين الكلاسيكيين ، تشاؤم معنوي ، لا تشاؤم ما ورائي . ان مورياك يتمنّع ان ينظر الى الانسان على انه كائن بريء أُلقي به في عالم من الشر والبؤس ، وحق له ان يرفع فيه عقيرته بالتمرّد . هو يرى ولا ريب

انه بائس ، ولكنه يرى كذلك انه مذنب ومسؤول لانه مخيّر . انه مذنب ، ولكن يمكن الغفران له ، ومسؤول ، ولكنه مدعوم بقوة خارقة . ولا يحدث ان يصل الامر بالروائي الى التعبير عن أمر مأسوي في غاية القتامة ، الا حين تبدو تلك القوة الضرورية مرفوضة ، والا حين يستوحي لاهوتيته من آراء جنسينية ما تزال باقية لديه .

لكن ألم يبالغ في جنسينية مورياك ؟ فهو حتّى حين يبدو انه يريد الذهاب الى اقصى حدود الفظاعة العاطفية ، وحتّى حين يكتب «القذر» او « غاليغاي » ، نادراً ما يستكين الى التلذّذ بالعدم . اذ لا بد من ومضة نافرة تختلج في نهاية الليل ، او زيق ازرق يمزق السماء العاصفة ، او حضور مطمئن يتجلى فيه الرب فجأة على حافة طريق الآلام والشقاء . ولا يعني ذلك ان ايمان هذا الشاعر المسيحي يولّد ، كما هي الحال لدى « كلوديل » ، ذاك التفاؤل الذي لا يرحم ، والذي ينتهي بأن يخنق نشيد الملائكة ما على الارض من عبرات . فمورياك اكثر اهتماماً بما في مرورنا العابر بالحياة من تباريح حقيرة وظلمات لا سبيل الى تبديدها . ومما لا ريب فيه انه ما كان مقدّراً له ان يبلغ القمم الروحية حيث جمع شاعر « الاناشيد الكبرى » في قلبه بين حب الله وحب الدنيا ، لمجرد ألا يكون سوى صوت عريض متهلل . فقلبه هو يظل ممزقاً ، ومن اجل هذا التمزق لدى الانسان بوصفه لحماً ودماً ، لا من اجل وحدة نفس القديس ، تراه يقدّم شهادته . ولقد ربح على الاقل لأنه قام بهذا الدور الاقل تسامياً ، وهو الا يسعى ابداً الى إماتة للنفوس المترددة المتألمة ، بل أن يخاطبها

مُورياك

بكلام ما زال في امكانها الاصغاء اليه . وحين يقول أخيراً لتلك النفوس انه يمكن دائماً ان يتفجر من أجف تربة وأدنسها ماء نقاء وحياة ، وحين يريها وهو يجتاز بها المهزلة البشرية الفظيعة اطفالاً عيونهم صافية، ومخلوقات تحمل سمة الخلاص والرحمة ، يصبح في مكنة تلك النفوس جميعها ان تلمح ، ولو للحظة ، نوراً يعزّيها ويقوي عزائمها . واذا كان قارئ مورياك مؤمناً، غدا سماع اجراس الفصح احق لديه واقوى . اما اذا كان غير مؤمن ، فربما نظر الى باب الكاتدرائية بشوق يخفي وراءه اريحية المحبة التي كانت موجودة من قبل في نفسه .

بيير هنري سيمون

مُوريــَــاك

متى يكرس فنان كبير نفسه في حقيقته ؟ أيكون ذلك بالطريقة التي لذّ بها لرامبرانت او لفان غوخ ان يرسما نفسيهما وهما ينظران في مرآة ؟ او ، على العكس من ذلك ، حين يقوم بتفسير العالم وتجسيده وفق متطلبات حساسيته الحميمة ، بعد ان يكون قد تأمله جيداً ، أي حين يصور ثوراً مسلوخاً او مجموعة من زهر دوار الشمس ؟ انه يُخشى دائماً ان تكون الصورة التي يقدّمها مبدع عن نفسه هي فقط ذاته كما يراها ، من خلال أمزجة عارضة او لحظات غرور سطحي ، بينما قد لا يعرف الغش ساعة الابداع ، ويكون مجبراً على قول حقيقته الخفية .

وحين يتعلق الأمر بروائي مثل فرانسوا مورياك ، فليس من الممكن تبسيط المشكلة . فاذا ما تمسكنا بالشكل البنائي لرواياته ، بدت لنا على قدر الامكان سيراً ذاتية ونوادر اخبارية ، ربما الا في رواياته الاولى كـ « الجبّة » ، و « الولد المثقل بالقيود » ، و « الشر » ، لان الروائي لم يكن يملك جيداً حينذاك جميع وسائله . ولا كان يعمل بعد على مستوى ما كان « بروست » يسميه « الأنا العميق » . ويقول مورياك في « الروائي واشخاصه » : « ان الروائي يبدأ بتصور ذاته فينا ، عندما نبدأ نحن بالانفصال عن قلوبنا بالذات » . وبالفعل ،

فان هناك قلة من الشخصيات المورياكية يمكنها القول بانها تمثل الرجل الذي دخل التاريخ باسم فرانسوا مورياك. فليس مورياك «جان بيلوبير»، ولا «بوب لاغاف»، ولا «ريمون كوريج»، ولا «ارفيه دو بلينوج»، ولا «لويس» في «عقدة الافاعي»، ولا هو على اي حال «كوتور». واذا استثنينا حيناً «سر فرونتناك» و «دروب البحر» اللتين يبدو فيهما «نرسيس» الذي شاخ منكباً على بعض صور للمراهق الذي كانه، فانه لا يمكن وضع أياً من رواياته الكبرى في مصاف الروايات الاعترافية على نمط «ادولف» او «دومينيك». فهاجس الموضوعية والانفصال عن الذات واضح لديه. وحتى معالجة السرد باستخدام ضمير المتكلم ليست مألوفة عنده، اذ هو يفضل ان يأتي السرد من خارج، من وجهة نظر الرب.

واذا كان عليّ ان اتمسك بالحرفية، فحينئذ ينبغي ان اختار الوثائق عن تصوير مورياك لذاته في ابحاثه، وفي «مذكراته»، وفي قصائده، مستبعداً معظم اعماله المعتمدة على الخيال. وهو أمر قد يكون مؤسفاً، وقد يجعلنا نخطئ ما هو هامّ. اذ اننا نقرأ كذلك في «الروائي واشخاصه». ما يلي: «يجب التسامح كثيراً مع الروائي بسبب ما يتعرض له من اخطار. فكتابة الروايات لا تعني الراحة والدعة على الاطلاق. اني لاذكر عنوان هذا الكتاب «الرجل الذي فقد أناه»، فأراه ينطبق بالضبط على شخصية الروائي، اذ إن «أنا »ه هو المهدد في كل لحظة. وكما أن طبيب الاشعة مهدّد في بدنه، كذلك فان الروائي مهدّد في وحدة ذاته.» فما للقول

في هذا ، ان لم يكن ان الروائي لا يبدع مخلوقاته الا بنفخة يوزّعها بينهم من اعماق روحه وكيانه؟ ان مآسيهم هي دائماً تقريباً نقلة رمزية للصراعات والتجاذبات الدائرة في اعماق وجدانه . وها « اندريه جيد » يشرح بوضوح عظيم كيف ان الروائي يصنع اشخاصه من اجزاء مضمرة ، من « العيون الغافية » في وجدانه . ولا ريب في ان مورياك ، بعد ان وافق زمناً على هذه النظرية ، عاد فاطّرحها . انه لا يريد أن يكون الروائي « تلك الشخصية المرعبة حقاً ، التي تكلّف شخصيات مستنبطة أن تكون دنيئة ، أو متحلية بروح البطولة ، في مكانه هو ، أو بدلاً عنه . » وهو يلحّ على « قدرة التشويه والتضخيم العجيبة التي هي أحد عناصر فننا الهامّة . » ومع ذلك هو يعترف بأن « لهذا المطلب المتفجّر في نفس أحد ابطالنا منطلقاً ضئيلاً جداً من قلبنا . » ويعلن بصراحة في شأن روايته « اقدار » : « ان الصبيين المتنصبين الواحد بازاء الآخر ، « بوب لاغاف » ، وابن « غورناك » التقيّ ، متساويان في كونهما مصنوعين من مادّتي انا ، وهما يجسّدان ما في اعماقي من تناقض . اني لم اكن لأريد ذلك وانا ابدعهما ، ولا كان قطّ عن قصد مني . لكنني في الواقع أرى نفسي بعد ثلاثين سنة في الاول ، واراها في الثاني ، كما هي الحال بالنسبة الى ابنين متخاصمين لدودين ، ومع ذلك هما من اللحم نفسه . »

ولذا كان لزاماً في هذه المختارات من النصوص الهادفة الى الكشف عن دخيلة مورياك ان يوضع النص بازاء النص ، ويكشف ببعضها عن بعض ، ولا سيما تلك التي يكتشف فيها الرجل بالاعتراف المباشر

ذكرياته وافكاره وتخبطات وجدانه ، وتلك التي يفصح فيها من خلال صور رمزية ، وببساطة احياناً عن طريق شفافية اسلوبه وتموجه ، عن تطلعات « أناه العميق » وتمزقاته ومواقف اخلاصه . فهنا بالذات ، لا في مكان آخر ، يكمن السند اللازم لمبدعات الفن الكبرى ، وكذلك اصل معناها ومغزاها .

وعليه فان على القارئ الا يستدل ، وهو يقع على صورتي « بوب لاغاف » وابن « غورناك » المتناقضتين ، ان لمغامراتهما وعواطفهما علاقة ما بسيرة فرانسوا مورياك أو طباعه ، وانما ان الروائي كان ، وهو يتخيل حوارهما ومناظراتهما ، قد اطلق قطعاً من جوهر ذاته ، وشظايا ملتهبة من خفايا نفسه .

مُوريــــاك

الصبا والمراهقة

لقد آثر مورياك ، شأنه شأن « بروست » ، ان ينكب على ذكريات سني وعيه الاولى . فهو اكثر ما يكون طواعية في تقديم نفسه حين يثير بدايات حياته ، سواء عن طريق البوح المباشر بأسراره ، أو عبر السرد القصصي . فقد كتب يقول « ان روح الصبا تبقى على حالها فينا تحت الطبقة السميكة التي تؤلفها افعالنا ؛ فالروح لا تتقيد بالزمن . » وكتب كذلك في « امتيازات الصدارة » يقول : « لست ادري تماماً ما تعنيه هذه الكلمة : « النسيان » . فكل شيء ماثل لنفسي حتى رائحة الغاز واللينوليوم الذي يغطي درجات السلم ؛ وحتى الهالة التي كان يرسمها القنديل وقد احضرته آنيت ، فتبدو تلك الهالة وكأنها مسافرة على السقف ، ثم جميع الرسوم في الاوراق الملصقة على كل جدار ، وجميع لعبي ، وتلك القائمة الناقصة من الحصان الخشبي ، وذلك الحزّ في ارض الغرفة المخصصة للغسيل وكان مجمعاً للدبابيس والإبر المفقودة ، والنور الخاص بكل غرفة في ساعة معينة من اليوم والفصل ، وحفيف الصحيفة التي كان البواب يزلقها تحت الباب ... »

مُوريـــاك

صبا جنسيني

كتب فرانسوا مورياك في « بدايات حياة » ، صفحات مؤلمة بما فيها من بساطة وانفعال ، عن صباه في « بوردو » ، والعطلات التي كان يقضيها في املاك أسرته ، والسنوات الاولى التي قضاها في المدرسة الثانوية .

ما كان شقائي بأني لم أعرف والدي ليزايلني قط . لقد كنت في شهري العشرين حين مات (...) وانا لا أذكره ، ولكني أذكر الزمن الذي كانت فيه آثاره ما تزال طرية غضة ؛ وحين كانت أمي تفتح الخزانة في غرفتها ، كنت انظر في اعلى رف بها الى قبعة سوداء بشكل نصف بطيخة ، « قبعة بابا المسكين » .

لم نكن في ذلك الوقت نسكن البيت القائم في شارع « با سان جورج » حيث ولدت وحيث مات أبي . فقد وجدت الارملة الشابة وابناؤها الخمسة ملاذاً في بيت أمها بشارع « دوفور دوبرجييه » . كنا نشغل الطبقة الثالثة منه ، وكانت حياتنا تتركز في غرفة الوالدة المفروشة ببساط رمادي ، حول قنديل صيني يتوّجه حاجب للنور بلون الورد . وفوق المدخنة كانت لوحة « شابو » عن « جان دارك » وهي تسمع نداءات نفسها . وكانت الاصوات تختلف باختلاف الفصول . فهناك زقزقة طائر الخطّف التي كانت تمزق الاصيل الغارب ، او عجيج الكاتدرائية الذي كان يملأ ليلة الميلاد ، او صافرات البواخر المعولة في الضباب . ومنذ الساعة التاسعة كانت أمنا تجثو على ركبتيها ،

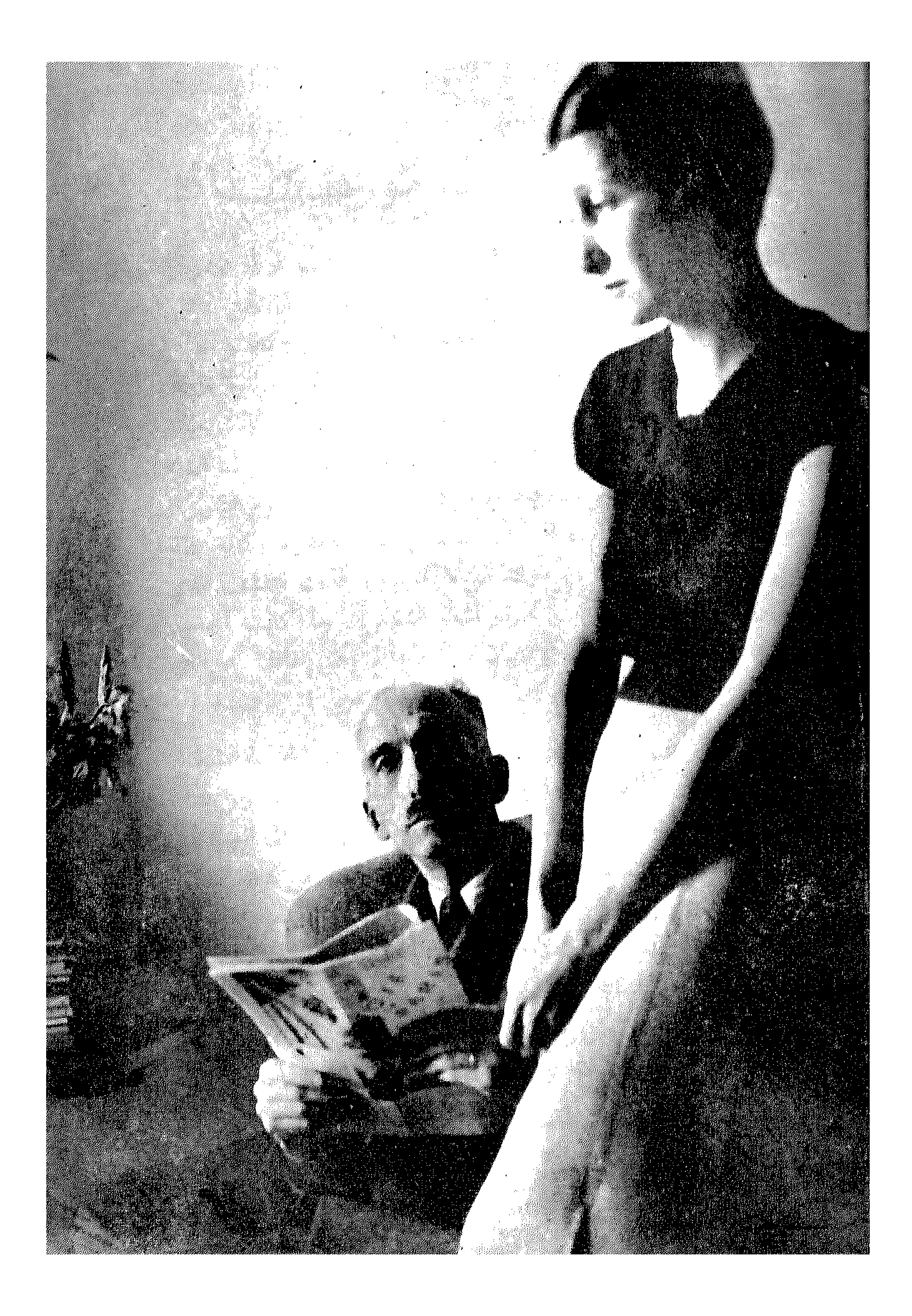
وكنا نتهافت حول ثوبها . كان اخوتي يتنازعون على « الزاوية » القائمة بين ايقونة المصلى والسرير ، فمن احتل ذلك المكان الممتاز ادخل رأسه تحت السُتُر التي كانت تتدلى من القبة القائمة فوق السرير ، وبات في مقدوره ان يغفو مذ تلفظ الاقوال الاولى : « ها انا ساجد امامك ايها الرب ! » (...) كانت قمص نومنا طويلة الى درجة اني لم اكن استطيع حك رجلي . وكنا نعلم ان الذات الالهية تطلب من الاولاد ان يناموا وايديهم مشبكة كالصلبان فوق صدورهم ، فننام واذرعنا مثنية ، وراحاتنا كأنها مسمّرة في اجسادنا ، معانقين القلائد المقدسة وكتفية جبل الكرمل التي ما كان ينبغي خلعها حتى عند الاستحمام . وكان اولئك الاطفال الخمسة منذ ذلك الحين يضمون الى صدورهم الحب الخفي في عناق مشغوف . وكان زفير أمنا يبحث اثناء الليل عن وجه كل منا (...) فأي صبي كنت في هذا الجو ؟ صبي حزين كان يجرح شعوره كل شيء . ومع ذلك فان التقشف الشديد الذي كان يرين على بيتنا لم يكن يمنعه من ان يكون فرحاً ؛ فقد كان لي ثلاثة إخوة وأخت وأبناء وبنات خؤولة ما زلت اسمع ضحكاتهم تحت اشجار « شاتو لانج » ...

انه ليصعب بعد قراءة « بدايات حياة » ألا نعير محاولات مورياك الروائية الاولى ، « الولد المثقل بالقيود » ، و « الجبّة » ، و « الشر » ، شيئاً من لهجة السيرة الذاتية المرتبة بعض الترتيب . ففي الصفحات الاولى من « الشر » نرى ان جرثومة الصراعات التي ستحدث في

نفس « فابيان » هي نتيجة لتربية أمه وشيء موروث عن ابيه الذي فقده في سن مبكرة .

كانت السيدة « ديزيميري » تنهض في الفجر ، وبعد اداء القداس كانت قبلتها توقظ « فابيان » ؛ كان لهذه القبلة نكهة الكنيسة ورائحة الضباب ، وكان الصبي يحب في عيني أمه نوراً كأنه يأتي من بلد مجهول . ولدى العودة من الحديقة العامة بعد الظهر ، كانت أمه تقوده الى الكاتدرائية لحضور « الساعة المقدسة » . وكان هو ينظر الى شفتي أمه ؛ انها كانت ولا ريب ترى الرب ، لانها كانت تكلمه بذلاقة . وكان « فابيان » يحس الضجر كل لحظة ، ولكنه ضجر يحتوي نوعاً من التلذذ . فقد كان الصبي يحاول الاعتقاد بأن يمناه كانت امرأة يطوق جيدها بالقلائد ، وكانت قلائده سبحة . ويمر راهب تحت مظلة يسبقه صبي يقرع جرساً صغيراً ، فتتحرك اشباح المؤمنين محدثة ضجة كراسي ، ملتفتة الى ذلك المظهر الآخر من مظاهر الوجود الرباني . ولم تكن السيدة « ديزيميري » تجثو وقد اشرق معرض القربان المقدس بين ست شموع ، وانما كانت تتأمل الرب وجهاً لوجه ، وقد مالت برأسها الى الوراء .

وفي المساء كانت تروح وتجيء في الممر وسبحتها بين اصابعها . وكانت يداها تدلّيانها وكأنها ربطة من خيوط الصوف ، لتعرف الى اي عشر من حباتها كانت قد وصلت . وكان « فابيان » يتبعها وهو ممسك بثوبها الذي كان يتخيله من الديباج المقصّب . وكان ليله يبدأ اثناء صلاة المساء ، فأمه تمدده في فراشه وترسم بإبهامها اشارة



مع السيدة مورياك حين انتخابه في الاكاديمية

الصليب فوق جبينه ، وتشبك يديه على هيئة الصليب فوق صدره ، وتجعله يردّد بعض الادعية تحسباً للموت المحتمل . لم تكن تخشى ان ترسم له منظورات نومة قد تطيلها « الابدية » . وكانت حياة « فابيان » تسير على وقع الحياة الطقسية ، فهو يغدو راعياً ما ان تضاء شموع « المغارة » . وفي يوم الخميس المقدس ، كانت مراثي ارميا تملأ نفسه هلعاً ومحبة امام المذبح المقفر ، حيث كانت اثنتا عشرة شمعة صفراء تنطفئ الواحدة بعد الاخرى . ثم هناك فجر يوم النشور ! وبهجة الاجراس العائدة ! كان يستنشق شهر العذراء وكأنه طاقة ورود بيضاء . لم يكن في حياته شيء كثيب ، فذلك التقشف الذي كان يغشاها اشبه بضباب تخترقه اشعة الشمس . وما كانت الجحيم ولا المطهر ليكدرا صفو « فابيان » ، لأنه لم يكن غافلاً عن اي نوع من الرأفة والرحمة ، وكان يغترف بانتظام من كنز الكنيسة .

وكان يوسف ، اخوه الاكبر ، يلهو ، وهو في الخامسة عشرة ، بلُعَب كان يتأكد من خلالها ايمانه : مذابح وزيّاحات ومواعظ . واذ كان تلميذاً في مدرسة داخلية ، فانه لم يكن يحضر الى البيت إلا يوم الاحد بعد صلاة الستار . كان يوسف على الرغم من هزال قوامه ، يملك مزاجاً حديدياً ، لأنه كان قد حاد عن طريق السعال الديكي والنكاف والحصبة ، هذه الامراض التي تصيب الاولاد ، والتي يدين لها « فابيان » بسنواته السعيدة الحالمة وكأنها سنوات ملك شاب لا يقوم بأي عمل . لكن مرضاً آخر كان يتربص بيوسف كامناً فيه لا يظهر الا فيما كانت السيدة « ديزيميري » تدعوه زكاماً حاداً ،

فكانت راهبة المستوصف تعنى بطرده باعطائه كل يوم ملعقة من شراب « تولو » . وقلّما كان « فابيان » يبحث عن هذا الرفيق الذي يشاطره لعبه ، الا حينما كان يسعى اليه ليجد عنده شيئاً من العزاء ، وقد طارت نفسه شعاعاً بعد اداء الاعتراف ، لأنه كان يخشى الا يكون قد ابان جيداً عن بعض اخطائه . وغالباً ما كان « فابيان » يتعمد قبل القداس ان يبتلع عشبة او جرعة ماء وهو ينظف اسنانه ، متذرعاً بذلك الى عدم تناول القربان المقدس، لأنه يخشى انتهاك الحرمات. وقد كان يوسف يستنكر مثل هذه الحيل .

وكان مرشد السيدة « ديزيميري » يتعهد « فابيان » برعايته يوم الجمعة من كل اسبوع . لم يكن يلبس ياقة ، وكان دائم الابتسام . وكان قد اقنع السيدة « ديزيميري » من غير ما عنف ، ولكن بعناد لا يرحم ، ان تعتبر ترمّلها وكأنه أمر ديني . وكان ينذر هؤلاء الاشخاص الثلاثة للكمال ، ويعزلهم في حياة اشبه ما تكون بحياة الاديرة . فما من زيارة يقام بها الا الى الفقراء . ثم هناك علاقات رسمية مقتصرة على كهنة الابرشية الذين كانت السيدة « ديزيميري » تجرؤ احياناً على القول بأن « هؤلاء السادة » لم يكونوا من طراز فوق العادة . وكانت بوصفها رئيسة الامهات المسيحيات ، ونائبة رئيسة سيدات المحبة ، تفتح صالونها لاجتماعات ليس فيها شيء من طابع الزيارات ، اذ ان الارائك والمقاعد كانت تبقى في غلافات القماش التي تغطيها ، وكانت الثريا في غلافها تشبه منطاداً ساكناً يمنعه السقف من للتحليق .

مُوريـاك

كانت تلك الشبكة من العادات التقية تشد « فابيان » الى درجة انه ، حتى حين دخل الثانوية في السنة الثالثة عشرة من عمره ، ما كان ليكدر صفوه اي من الاعراض الجسدية . وكانت بعض الايماءات وبعض الاسرار التي يباح بها همساً تموت على عتبة قلبه دون ان تجد سبيلاً الى ملامسته . فلم يكن يفقه شيئاً من أمور الجسد ، فهو يتصف ببلاهة ربانية إزاء كل ما له علاقة بالرذيلة او الشهوة . لقد كانت امرأة متنسكة تضع يديها فوق عينيه وتخفي بهما الدنيا عنه . انه لم يكن يحس وطأة الجسد الكامنة في كل منا ، ولا صرخة الرغبة الغضوب ، ولا تلك العاصفة التي تهب في الوقت الذي يكون فيه الرب نائماً عند مؤخر السفينة . إنه ليس في مقدور امرأة تعيش وحيدة ان تصنع رجلاً . ولم تكن السيدة « ديزيميري » السعيدة برؤية الوجه النقي الوادع الذي كان « فابيان » يحنيه فوق كتبه ، تهتم بأن ترى بأن ساعديه لم يكونا في نحولة ساعدي يوسف ، ولا ان صدره مجوف كصدره . ومنذ السنة الخامسة عشرة كان منظر رأس الصبي الاسمر يثير الدهشة فوق ذلك الجسد الفتي الممتلئ رجولة . ولقد نسيت السيدة « ديزيميري » ان هناك من كان له نصيب ومشاركة في إنجاب هذا الصبي الطاهر ، الميال الى الشرود في عالم الاحلام ، المزدري لكل حراك ، رغم بنيته المؤهلة لصرف الطاقة البدنية صرفاً شاقاً ، الذي كان يمارس حياته في جهل مطبق بأمور جسده المتفتح لتوه .

مُوريَـــاك

أفراح صبي من صبيان المذبح وأتراحه

في المدرسة الثانوية تكوّن ادراك فرانسوا مورياك في جو مسيحي أقل توتراً وأكثر رفقاً من جو الاسرة ، وفي ظل تأثيرات الشعر التي راحت تعكر ذاته ، وتأثيرات الادب الذي لا يقيم للدين وزناً ، والذي اكتشفه في كتبه المدرسية . وان المرء ليلمس من خلال السرد المتراخي قليلاً في « الجبة » ، وبشكل اظهر في قصائد « الايدي المشبكة » و « وداعاً ايتها المراهقة » ، الانفعالات التقية المتأتية من اجواء كنيسة المدرسة ، واعياد الرب ، وجلسات الاعتراف ، ومعها التطلعات الاولى الى اسرار الحب ، والظلال الاولى للشر ، وقد رؤيت في شوارع المدينة التي يلفّها الغسق :

التلميذ

في أمسيات شهور العذراء العابقة بالعطور ،
في أيام السبت الغابرة ... كان التلاميذ الصغار
يأتون واحداً بعد واحد ، آخر النهار
الى كنيسة المدرسة اللطيفة
ليدلوا باعترافاتهم .

. . .

هناك في الخارج صيحات طيور الخطّف الحادة وطيرانها المجنون
وهي تتلاحق في السماء الشاحبة

مُوريَاك

ويأتي الصبي الذي كنته آخر الجميع
الى كنيسة المدرسة المزهرة العابقة بالاريج .

. . .

يأتي هو الذي تقلقه الحياة وتصده ،
هو للذي يريد ان يغلّف حزنه بالصمت
فيستغل الفرصة ليبكي النهار المولّي
ويشرد ذهنه في خطاياه داخل كنيسة المدرسة اللطيفة .

. . .

فيمَ البكاء؟ انه لا يدري . يريد ان يبكي
مثل «رينيه» الذي يعرف شكاياته العظيمة .
وها هو يضطرب داخل العطر المتبخّر
الفائح من الازهار التي سوف تموت ، ومن الشموع المنطفئة .

. . .

وفي هذه النفس العابقة بالزهر والشموع
يشعر في قوة بالوجود القدسي
للصديق الوحيد الذي يرى دموع مراهقته
المنهمرة في حنان ، دون ان يثير مرآها ابتسامه ابداً .

. . .

انه «الصديق» الذي كان يتبعه خلال اعياد الرب الملتهبة
حين كان التبن النامي يجعل الطرق الريفية أضيق

مُوريـــاك

. . . .

وفي العشية كانت الدهشة على اشدها حول مذبح زيّاح القربان
وكان الصبي يحمل الازهار المذهبة في عناية فائقة

. . . .

وعند غروب الشمس ، موعد مذاكرة المساء ،
وفي الوقت الذي كانت تسمع فيه زقزقة الدواري في الفناء،
يا الهي ! كان هو الذي تخور قواه من الحب
مفتوناً بـ « بحيرة » لامارتين ...

وبعد مرور سنوات كان على الرجل الناضج ان يقف موقفاً صارماً من هذه العاطفية المرائية التي يقتات فيها القلب من لذات ورع لا طعم له ، لانه تنقصه الشهوات التي يستشعرها ويرفضها .

اذا كنت لم أوافق قط حتى اليوم على إعادة نشر « الايدي المشبكة » ، فذلك ولا ريب لأني كنت استفظع هذه الابيات الخالية من الفقر العظمية ، وتلك القصائد الرخوة . وفي النهاية ، كان لا بد للتذوّق الذي ابداه « باريّس » ازاءها بعض الوقت ، من ان يجعلني استسلم . والحق اني لا اكره فقط في هذا الكتاب الصغير طريقة نظمه ، وانما ابغض على الاخص روحه وفكرته . واني لأنكر هذه المراهقة الجبانة المذعورة المنطوية على نفسها . ولا يعني هذا اني اتبرأ من ايماني في ذلك الزمان ، كما لا يعني اني اتبرأ من شعري . ولكن طريقتي في الايمان كانت تعادل طريقتي في نظم القوافي ، فياللسهولة !

مُوريَـــاك

انه الصبي الذي يخاف كل شيء مستنشقاً البخور ، متأثراً باسرار التناول المقدسة ، متمتعاً بالحفلات الدينية . وخوره في مواجهة الحياة يجد له في ذلك مسوغات فيها عبرة لمن يعتبر . اما هو فيرجع ضعفه الى اسباب ماورائية . فلا شيء يجعل الله بالتأكيد يبلى في نفس من النفوس مثل استخدامه في سنوات العمر المضطربة . اما ما كنت ابحث في الدين عنه وانا في العشرين ، فهو طريقة للتأثر تكون أقلها خطراً .

ومهما يمكن ان يقال ضد الجنسينية ، فان لها ميزة تتمثل في انها تجعل التفاني في طلب اللذة مستحيلاً ، وكذلك التلذذ الحسي في خدمة الصبيان الذين لا يحبون ركوب المخاطر . فهي اذن قد خرطتك منذ البداية في مغامرة غير محمودة العواقب ، تتمثل في قول بسكال « يا رب اني اعطيك كل شيء » . وقد جعلت من الله شريكاً لي في جبني اثناء مراهقتي ، فمن يدري اذا لم تكن تكمن في هذا العمل الخطيئة بحق الروح القدس ؟ وعلى كل حال ، فان الروح القدس ينتقم انتقاماً رهيباً في الوقت الذي تقتحم فيه الحياة بغتة هذا الرجل المولود متأخراً من المراهق الضعيف . فأي غوث سيجد في هذه الديانة التي لم تكن قط بالنسبة اليه سوى مصدر للذات الخفيفة ؟ وديوان « الايدي المشبكة » يفسد مقدماً هذا المورد اللانهائي الذي سيحتاج اليه الصبي حين يغدو رجلاً . انه يبدد رأس مال ضخم ، فكل شيء يضيع في سحابة من البخور . والويل لصبي تكون المسامير ، واسفنجة الحقد ، واكليل الشوك ، اول « لُعَبه » .

مُوزريـــاك

(الاعمال الكاملة ، الجزء السادس ، مقدمة الطبعة الثانية من « الايدي المشبكة » في عام ١٩٢٥) .

ومع ذلك فلن نرى مورياك نادماً ابداً على انه كان صبياً طاهر الذيل .

ان الرجل الذي لم ترافق الخطيئة صباه ومراهقته الاولى ليتساءل احياناً عما كسب من هذه السذاجة . وهو يعتقد انه لم يستفد شيئاً من كونه تأخر اكثر من غيره في لبس حلة الزفاف ؛ فهل تكون حياته بالنتيجة أطهر من حياة الآخرين ؟ بل من يدري ما اذا لم تكن هناك اغراءات واطماع قد حصنت ؟

لكن الرجل الذي كان يهزأ بطهارته الاولى ، ويشتكي شبابه المكبوت كبتاً شديداً ، يتذكر المنزل الابوي ذات يوم ، بعد ان يكون قد مُني بهزائم الحياة ، فيحث الخطى على درب العودة ، دون ان يجرؤ على الظن بان مناعته الطويلة ازاء الشر تسمح له بقبول القانون الذي يفرضه رب الاسرة على اولاده .

لقد رزح تحت وطأة نداءات عدة ، وناء بثقل ليال مسهدة . وهو يعتقد بأن هذا النير ، حتى وان كان ألطف نير ، لاَ يمكن الا ان يمضّ القلب للواهن . ومن ناحية اخرى تأتي المعجزة . فتحت طبقة الاخطاء اليومية السميكة ، ظل ماء الصبا الطاهر محفوظاً . وها هو يتدفق خلال البرزخ الذي فتحته الرحمة (كما يحدث بعد انفجار لغم) ، ويعود كل شيء في وقت معاً الى النفس المنيبة : صلوات

المساء ، وجلسات للتقرّب التي تتم عند الفجر ، ووسواس الطهارة والكمال .

« مهما اوغلت ذكرياتي في القدم ، فانا لا اذكر اني كنت نقياً . » ان هذا ابأس اعتراف تلقيته . ولكن الذي باح لي به اتى عليه حين من الدهر كان فيه على الاقل نقياً ، وان كان ذلك يتجاوز حدود ذكرياته . فهناك في اكثر المخلوقات دنساً صبا لا مجال لتحطيمه ، وقد ينبعث في كل لحظة . انه جزء من ذلك المخلوق لم يعرف الفساد على الاطلاق . فكم من مرة بدت لنا فيها تلك السذاجة الخبيئة خلال وجه اذبلته الايام ! وقد يحدث ان احد تعاليم المسيح « اذا لم تغد شبيهاً لأحد هؤلاء الصغار ... » يتردد صداه في نفوسنا حاملاً معنى أضيق : « اذا لم تغد شبيهاً للصبي الذي كنته ... »

(من « بدايات حياة »)

ولكن الاشباح الدنسة لا يمكن ان تبعد دائماً عن تلميذ ثانوي ، مهما كان محمياً ومحوطاً بالرهبان والنساء التقيات . فهو يراها تنبثق من دفاتره المتواضعة ، بينما تحاصره المدينة بتحريضاتها الغامضة . وهكذا يبدأ الصراع في قلب فتيّ بين التفكير بالدنيا والتفكير بالله .

كانت الكثلكة تحدد ، داخل سور الصين الذي كان يلفّ بالنسبة الي مقاطعة « غويين »[1] ويفصلها عن الكون ، عالماً آخر كان من

(١) « غويين » مقاطعة فرنسية عاصمتها « بوردو ». (المترجم) .

الممكن ان تتقطع فيه انفاسي لولاها . فأي الاولاد غيرنا كانوا اكثر انشغالاً منا بشأن الرحمة؟ ولم يكن هذا أمرنا وحدنا ، ولكنه كان كذلك امر الناس الآخرين . فمن اشد انطباعات الصبا في نفسي تلك العادة التي اتبعها اهل « بوردو » في انهم لا يختارون ايام الزفر [١] لكي يستسلموا لحمّى الكرنفال ، وانما يختارون اول ايام الصوم الكبير المعروف باربعاء الرماد [٢] (حسب عادة قديمة تستلزم ان يذهب الناس للصيام في اول ايام الصوم الكبير الى « كوديران » وهي ضاحية شهيرة بحلزوناتها) . وقد كان كل قناع يبدو لي في هذا اليوم المخصص للتوبة والندم ، وكأنه انسان في حال الخطيئة . لم يكن يستهويني – سواء كنت اتفرج من النافذة ، او كان الجمهور يدفعني اثناء زحامه على جادة المركز الاداري – مرأى العربات والزخارف التنكرية ، بقدر ما كان يستهويني مشهد اولئك الناس المنذوزين لموت ابدي ، الذين كانت مشافرهم الكرتونية تدنس السماء . فقد كان هناك رجال متنكرون بثياب النساء يرفعون تنانيرهم ويقرفصون بشكل بشع بين خطي الترامواي . وكان المتقنّعون المحشورون في عربات من طراز العهد الفيكتوري يرشقوننا بحبات البرتقال وهم يجرون نحو « كوديران »... « كوديران » ! « كوديران » ! ضاحية الاقنعة حيث كانت ثانويتي المتقية على الرغم من ذلك قد شيدت على مهل بين اشجار « غران

---

(١) هي الايام المسموح فيها بأكل اللحوم خلال الصوم . (المترجم) .

(٢) هو اليوم الذي يرسم فيه الكاهن إشارة الصليب على جباه المؤمنين مستخدماً الرماد رمزاً لفناء الجسد والموت . (المترجم) .

لوبران » المغبّرة . كانت إحدى عربات الاومنيبوس تأخذني منذ الساعة السادسة من فوق الرصيف الذي يلفه الضباب امام المنزل ، وتنقلني نحو الشارع العريض الذي يؤدي الى ثانويتي الساكنة المشعة بالاضواء في الفجر المعتم . كان ذلك يحدث كل يوم ، حتى يوم الاحد . تذكّر ايام الآحاد هذه : قداس التناول ، القداس الكبير ، التعاليم الدينية ، اجتماع رهبانية المدرسة ؛ وبعد الغداء ، صلاة الستار ، وبركة القربان المقدس . وكان ذلك يبقينا حتى الساعة الثالثة والنصف ، فكنا نخشى في الايام التي تقام فيها حفلات مصارعة الثيران ان يفوتنا مشهد الثور الاول . كان الجو يتلبد : ألم تكن العاصفة تلتمع قبل المباراة ؟ وطوال صلاة الستار كان من غير الممكن معرفة مدى بُعد العاصفة من خلال زجاج نوافذ الكنيسة . فكل ما كنا ندريه ان الشمس لم تكن تظهر في السماء ...

(من « بدايات حياة »)

ويتردد هذا في عدة قصائد من ديوان « وداعاً ايتها المراهقة » :

مذ دخلنا الثانوية ، وتحت اشجار الدلب الخريفية ،
كانت « فيدر »[1] تذكرنا (بانواع) الحب المحرم .
وكانت اصواتنا المحشرجة (ونحن نقول) : ايتها الاميرة « ارميون »
تقول لنا : « لقد اعطيتم كل حنان ... »

...

(١) بطلة مسرحية لراسين تحمل الاسم نفسه . (المترجم) .

مُوريـاك

واولئك الصبية الذين كان الغسق يبكيهم ،
كانت « روكسان »[1] تذيقهم المباهج الخفية .

. . . .

كنا نقول : « اندروماك »[2] ، ايتها الاميرة القاسية
التي تعرفين الحب اللذيذ ، وتحرمين نفسك منه ،
الا تجروين ان تتذكري فوق شفاه اخرى ،
قبلات الطروادي التي وسمت فاك ؟ »

. . .

وهكذا كانت جوقة كبريات البطلات المتحمسة ،
تثقل سنواتنا الست عشرة بالشهوة .

. . .

ايها المساء المتواطئ معنا ، ايها المساء الذي تطوف به الخطيئة ،
ان ضبابك الساكن الذي يلامس السطوح المائلة ،
قائم هناك كأنه رغبة محمومة لا يلطفها شيء .
إني الصبي الذي تنغصه فكرة سيئة ،
متواطئاً مع الغسق المريب ،
ذلك الذي عرفته وقد مزقت نفسه الهواجس .

. . . .

(١) بطلة مسرحية « باجازيه » لراسين . (المترجم).
(٢) بطلة مسرحية لراسين تحمل الاسم نفسه . (المترجم).

مُوريـــاك

يقول لا بكل ما فيه من عذوبة ، ويقاوم
قبلة المساء الحارة فوق روحه المضطربة ،
والحب الذي يكفي ان يلامسه ليغدو حزيناً ...

استيقاظ الحب والهروب من خلال النقاء

تضطرب نفس بطل « الجبة » الشاب بحضور ابنة عمه « كاميليا »، وتفرق بين الحبيبين دسائس تلبس ثوب التقى .

ويوم السبت الذي تلا ، ذهبت اعترف كالعادة خلال مذاكرة المساء . كان ذلك الطف اللذات بالنسبة الي . فكنت اولاً أغادر غرفة المذاكرة ، ثم كان في مقدوري قبل بلوغ كنيسة المدرسة ان اتباطأ في الممرات المظلمة ، ان الصق جبيني الى زجاج احدى النوافذ التي تطل على الحديقة العامة فأرى النجمة التي يمكن ان تكون في هذا الوقت تنظر الى « كاميليا » . واذا قدر « لجوزيه كزيمينيس » ان يلقاني في موقفي ، فاننا كنا نلبث طويلاً . كنت اصغي اليه يتكلم ، كان لأقل الكلمات شأناً على لسانه معنىً سحري غامض . كان يذكر لي « بارسيفال » و « كوندري » اللذين ما انفكا يراودان خياله منذ ان قام برحلة مع أمه الى « بروت » ، ثم ينشدني بعض الابيات . ومنذ ذلك الحين ما كان لصوت بشري ان يهزني مثل ما هزني صوته . وبفضله احببت وانا في السادسة عشرة « بودلير » و « مالرميه » و « فيرلين » و « جيمس » . لكن مرأى جبة بمحاذاة الحائط كانت تجعلنا نفر . فكنت ادخل كنيسة المدرسة كي اجري

فحصاً لضميري . كان الضوء يضيع في القباب ، وكان نفر من معلمينا جاثين على ركبهم في صدر الكنيسة . ان بعضهم مستغرقون في تأملاتهم امام الرب ، وقد مالوا باجسادهم الى الامام ، والآخرون يحدقون في بيت القربان ، وقد رفعوا وجوههم عالياً . وكنت احس نفحة عدة محاورات مثيرة في ظل الصلوات الكثيف . وكان الشمع الخام والبخور النادر واوراق الشجر ، تؤلف جواً يلذ لي ان اتباطأ في الخروج منه . وبعدها كنت اذهب فاقرع في تكتم باب الاب « روكتياد » الذي قلما كان يتلقى الاعتراف باعتباره رئيس الثانوية . لكنني كنت رئيس اخوية الكبار ، وابنه الذي يحبه اكثر من الجميع ، فكان لهذا يقبل ان يرشدني .

وسمعت وانا اتقدم من حجيرة الاعتراف في ذلك المساء صوتاً ، فالاب لم يكن وحده اذن . ولذا خرجت اتمشى في الرواق وانا اقرأ بعض الادعية في ثبات وعزم . وكم كانت دهشتي اذ سمعت اسمي واسم « كاميليا » يلفظ بهما صوت اكثر من حاد ، وهذه الجملة يقولها الاب « روكتياد » بنبرة أعلى من نبرته المعتادة :

– سيدتي ، انه لأمر هين !

وفتح الباب ، ولم اكن املك من الوقت اكثر مما ينبغي لاختبي في الظلمة ومرّت السيدة « دوفاتمسنيل » متعالية تحت خمارها الاسود ، وقد تبعها الاب « روكتياد » الذي كانت سمات التضايق قد بدّلت وجهه البارز العظام ، وهو وجه طالما تعرفت عليه فيما بعد من خلال شخصيات « فينيلون » .

مُوريَــاك

وانسللت الى حجيرة الاعتراف ، فاستقبلتني ابتسامة بيوس العاشر الحلوة من خلال صورة فوتوغرافية له ولاحظت فوق المدفأة طاقية من الحرير الابيض كان يعتمرها ليون الثالث عشر ، وقد حفظت داخل كرة من الزجاج . لم أكن أفكر في شيء . وفي الحديقة العامة كان غسق شهر حزيران يبدو وكأنه ثابت في مكانه . وكانت سطوح المظلات الداكنة تحدّ من مساحة الملعب ، وعصافير الدوري تزقزق حول الفتات المتبقي من طعام العصرونية . وحاولت ان اتتبع ببصري سنونوة بين سربها ، لكن طيرانها كان من التشابك بحيث تختلط في صفحة السماء التي كان يزينها قمر شاحب . وهناك ، عند دير الراهبات ، كان رنين النواقيس يملأ المساء ، فجرى اسم « كاميليا » على شفتي . وتمثلتها واقفة امام السيدة « دوفاتمسنيل » المخيفة ، ذليلة متهمة ، فخنقتني الدموع . وكان بقربي مصلى ، فجثوت على ركبتي واخفيت وجهي بين ذراعي المثنيتين . واحسست بيد تحط فوق شعري فنهضت . كان الاب « روكتياد » امامي ، وقد ظهر اطول مما هو . مع بداية ظلال المساء . تمتمت :

— جئت اعترف ... وقد رأيت السيدة « دوفاتمسنيل » خارجة .

نظر إلي الأب دون ان ينبس ببنت شفة ، وفتح خزانة في الحائط فلبس المدرعة والبطرشيل بعد ان قبّله ، ثم قال لي بصوت غير مبالٍ :

— هل انت مستعد يا ولدي ؟...

وارتفعت يده تباركني بينما كنت اهمس :

مُوريـــاك

ـ اغفر لي يا ابت لأني اخطأت ...

وحين نهضت ، وضع يده مرة اخرى فوق شعري ، ونظر إلي برقة تمنيت معها لو عدت الى الجثو على ركبتي . قال :

ـ لقد علمت من السيدة « دوفاتمسنيل » ان ابنة عمك ليست منزعجة . وهي ستكتفي باعلام السيدة جدتك بالامر . وعلى كل حال ، فالاخت « ماري هنرييت » قد اوضحت لجدتك قضية شعور كل منكما نحو الآخر . ولهذا ستذهب يا ولدي بعد الانتهاء من الامتحان لقضاء ثلاثة اشهر في المانيا ...

وتردد برهة ثم أضاف :

ـ سوف ترحل دون ان ترى الفتاة التي تظن انك تحبها ...

ووجدتني من جديد في الرواق . ومن بعيد كانت فرجة واسعة تشق السماء الليلية . واسندت جبيني الى الزجاج ، متعجباً من ضجيج الفرح المتصاعد من قلبي لنبأ تلك الرحلة . وتملكتني الف رغبة مشوشة ، فتمثلت الليلة التي قضيتها في مسرح « مونيخ » حيث تركت نفسي لـ « سحر الجمعة العظيمة » وانا مغمض العينين . ولم تعد « كاميليا » اكثر من طفلة ماتت في ماضي حياتي .

وللمرة الاولى لم يعد « جوزيه كزيمينس » في نظري كثير الغموض ، فقد فهمت رعبه الناجم عن انه لم يعرف قط من الحب سوى مظاهره الخارجية ، وكانت المرة الاولى اخاف فيها من نفسي .

(من « الجبة »)

مُوريـــَـــاك

اكدار المراهقة ومنغّصاتها

ولد « ريمون كوريج » بطل « صحراء الحب » الشاب ونفسه من الاضطرام بحيث لا تمكنه من الشغف بالحنان الطاهر والاستسلام الى نكران الذات ، واذا ازمة البلوغ بالنسبة اليه ألم وثورة .

كان الصيف الذي اقبل حينذاك ، الصيف الذي بلغ فيه « ريمون كوريج » السابعة عشرة . وهو يذكر انه صيف محرق ، بلا ماء ، لم تعرف المدينة الحجرية قبله ولا بعده صيفاً اثقلها بمثل ذلك الجو الذي لا يرحم . وعلى الرغم من ذلك ، فهو يذكر ايام الصيف في « بوردو » التي تحميها التلال من ريح الشمال ويحاصرها حتّى مداخلها الصنوبر والرمل اللذان يكثفان الحر ويراكمانه ، « بوردو » المدينة الفقيرة بالاشجار خارج الحديقة العامة التي كان يخيل للاولاد العطاش انه قد انتهى موات آخر نبتة في العالم وراء اسيجتها العالية المهيبة .

لكن ربما كان « كوريج » يخلط في ذكرياته عن تلك السنة بين حرارة السماء ولهيب داخلي كان يدمره وستين صبياً من عمره بين حواجز ملعب كان يفصله عن سائر الملاعب جدار من المراحيض . كان هذا القطيع من الصبية المشارفين على الموت ، والرجال الذين قاربوا الولادة ، بحاجة الى ناظرين لضبطه . فقد كانت هذه الغابة البشرية تتمطى ، في بضعة اشهر ، نحيلة مبرّحة ، تحت وطأة نتشة مؤلمة . ولكن ، بينما كان العالم واعرافه تشذب تقريباً جميع تلك الشجرات المهملة المنتسبة الى العائلات الطيبة ، كان « ريمون كوريج »

يقذف ناره بلا حشمة . كان يثير الخوف والهول في نفوس اساتذته الذين كانوا يفصلون ما امكنهم هذا الصبي ذا الوجه المجرّح (لان جلده الغض لم يكن يتحمل وطأة الموسى) عن سائر الصبية . كان في نظر التلاميذ الطيبين ذلك الشخص القذر الذي يقال انه يخبيُ صور النساء في محفظته ، وانه يقرأ في كنيسة المدرسة « قصة افروديت » يخفيها في حافظة كتاب الصلوات . « لقد فقد ايمانه ... » ، كانت هذه العبارة ترعب الثانوية ، كما لو ان شائعة سرت في مصح للامراض العقلية بأن أخطر المجانين قطع الثوب الذي يقيده ، وراح يهيم عارياً خلال الحدائق . وكان معروفاً انه في ايام الآحاد النادرة التي كان يفلت فيها « ريمون كوريج » من الحجز ، كان يرمي بين نبات القرّاص ثوبه المدرسي ، والقبعة التي يزينها شعار العذراء ، ويلبس معطفاً اشتري له جاهزاً من محلات « تييري وسيغران » ، ويعتمر قبعة مضحكة كالتي يعتمرها رجل الشرطة وهو خارج دوام الوظيفة ، ثم يهرع الى الاكواخ المريبة القائمة عند السوق الدائمة ، وانه رؤي في محل من محلات الالعاب المسلية ، وهو يضم الى صدره عاهرة لا يمكن تقدير عمرها .

. . . .

كانت فكرة ثابتة تشغل باله ، وتسليه عن كل اضطهاد ، وتقصر ساعات الحجز التي يقضيها مستنداً الى جدار المظلة الملاطي . تلك فكرة الرحيل ، فكرة الهرب في فجر يوم من ايام الصيف ، على الطريق الكبيرة ، للطريق الى اسبانيا ، التي تمر امام املاك عائلة

« كوريج » ، التي تثقلها بلاطات ضخمة تذكر بعهد الامبراطور ومدافعه ومواكبه . وكانت تعتريه نشوة مسبقة لكل خطوة يخطوها فتبعده قليلاً عن الثانوية وعن الاسرة الكئيبة !

. . . .

ومع ذلك ، لم يهرب هذا الصبي الذي اجمع اساتذته وذووه على انه كفيل بعمل اي شيء . وقد كان اعداؤه ، دون أن يدروا ، هم الطرف الاقوى . فالهزيمة التي يمنى بها المراهق تتأتى عن تركه نفسه تقتنع بشقائها . وقد يحدث ان يقبل اشرس الصبيان ، وهو في السابعة عشرة من العمر ، بلا مقابل صورة ذاته التي يفرضها عليه الآخرون . فلقد كان « ريمون كوريج » جميلاً ، ولكنه لم يكن يشك على الاطلاق في أنه مسخ في غاية البشاعة والقذارة . انه ما كان ليستبين ملامح وجهه الصافية ، ولكنه كان متأكداً من انه لا يمكن ان يثير في الآخرين سوى الشعور بالتقزز والقرف . كان يستهول نفسه ، ويظن انه لن يتوصل قط لأن يعيد للعالم روح العداء الذي ولّده فيه . ولهذا السبب كان يحس برغبة اقوى من الرغبة في الهرب ، ألا وهي الرغبة في التواري ، واخفاء الوجه ، وعدم محو الحقد على من لا يعرفهم من نفسه . كان ذلك الماجن الذي يخشى ابناء الرهبانية المدرسية ان يلمسوا يده ، يساويهم جهلاً بالنساء ، ويحكم على نفسه بأنه غير جدير باعجاب ابأسهن واقذرهن . كان يخجل بجسده ، ولم يكن اساتذته ولا ذووه ليروا في تباهيه بالفوضى والوساخة الا نوعاً من التبجح البائس من قبل هذا المراهق لإيهامهم بأن شقاءه كان

متعمداً ، وانه في مثل هذا العمر من قبيل الغرور المسكين والقهر الذي لا يجدي نفعاً .

(من « صحراء الحب »)

قدر « ايف فرونتناك »

ولكن ، ها إن ينبوعاً علوياً سوف ينبجس من مراهقة اخرى لا تقل في موورياكيتها عن الاولى . فلسوف يولد منها شاعر ...

... لم يكن احد من افراد عائلة « فرونتناك » ليحدس تلك الليلة ان عهداً من عهود الاسرة سينطوي مع العطلة الكبرى التي مرت ايامها مشوبة بالماضي ، او انه حين تنقضي هذه العطلة سوف تجر معها الى الابد المسرات البسيطة الصافية ، وتلك الفرحة التي لا تدنس القلب .

كان « ايف » وحده يدرك ان تبدلاً سيطرأ ، وذلك لانه كان يسعى اكثر من الآخرين لاختراع الاوهام . فقد كان يرى نفسه على عتبة حياة تلتهب بالالهام والتجارب الخطرة . والواقع انه كان يدخل عهداً كئيباً من غير ان يدري . فلسوف تسيطر على نفسه هواجس الامتحانات مدة اربع سنوات ، وينزلق الى صحبة من هم دون المتوسط ، ويجعله الاضطراب والتطلع الى معرفة الاسرار الدنيئة نظيراً لرفاقه ، ومتواطئاً معهم . وقد اقتربت الساعة التي قد تكون فيها المعضلة المحتاجة الى حل متمثلة في ان يحصل من أمه على مفتاح

المدخل ، وحق البقاء خارج البيت بعد منتصف الليل . انه لن يكون تعيساً بعد اليوم . ولسوف تخرج من اعماق ذاته احياناً زفرات تفصل بين الواحدة والاخرى منها مدة من الزمن ، وكأنها تخرج من كائن مكفّن . انه سيترك الرفاق يبتعدون . وحين يغدو وحده الى احدى موائد مقهى « بوردو » وسط النباتات الشائكة والنساء ذوات الخدود الضخمة المصورات على الفسيفساء الحديثة الطراز ، فسوف يكتب على اوراق تحمل اسم المقهى دفقاً من الكلمات ، دون ان يهدر الوقت في تشكيل حروفها ، خشية ان تضيع واحدة من تلك الكلمات التي لا نلهمها إلا مرة واحدة . وستتمثل المهمة عند ذاك في تعهد حياة نسخة اخرى عن النفس ، وهو امر سبق لبعض المبتدئين في باريس ان اطنبوا في اطرائه . والحقيقة ان عددهم من الضآلة بحيث ينبغي ان تمر على « ايف » سنوات عدة ليدرك اهميته ، ويعرف مدى نجاحه هو بالذات . وباعتباره من اهل الاقاليم الذين يحترمون الامجاد القائمة ، فسوف يظل طويلاً جاهلاً بأنه يمثل هو الآخر مجداً من الامجاد ، ذلك المجد الذي يولد في الظلام ، ويشق طريقه كالخلد ، ولا يخرج الى النور إلا بعد مسيرة طويلة تحت الارض .

لكن كرباً كان بانتظاره . فكيف لم يحدس « ايف فرونتناك » هوله ، وهو عند نافذة غرفته في تلك الليلة الرطبة الناعمة من ليالي ايلول ؟ فبقدر ما سيؤلف شعره بين القلوب ، سوف يزداد شعوره بافتقاره ، اذ سيشرب اشخاص من هذا الماء الذي كتب عليه وحده ان يرى نضوب معينه . ولسوف يكون هذا هو السبب في حذره

من نفسه وتهربه من نداء باريس ، والمقاومة الطويلة في مواجهة مدير اهم المجلات الطليعية ، واخيراً تردده في جمع قصائده بين دفتي ديوان .

كان « ايف » عند نافذته يتلو صلاة المساء ، امام قمم الاشجار غير الواضحة في « بوريديس » ، وامام القمر التائه .. وكان يتوقع كل شيء ، ويستدعي كل شيء ، حتى الألم ، باستثناء هذا الخجل بأن تنقضي سنوات على اليوم الذي تفجّر فيه ينبوع إلهامه ، وان يظل يهدهد مجده بالخدع والذرائع . لم يكن يتوقع سوى هذه المأساة ، ولسوف يعبّر عنها يوماً بيوم في مذكرات تطبع بعد « حرب » كبرى ، ويستسلم لها ما دام لم يكتب شيئاً منذ سنوات . ولسوف تنقذ هذه الصفحات البشعة ماء الوجه ، وتسهم في صنع مجده اكثر من قصائده . انها ستفتن لحسن الحظ جيلاً من القانطين وتهزّ أفئدتهم . وهكذا ربما كان الرب في هذه الليلة من ليالي ايلول يشهد تمخّض هذا الفتى الطيب الحالم امام الصنوبرات النائمة عن سلسلة من النتائج . ان المراهق الذي كان يظن نفسه مغروراً لم يكن بقادر على ان يعرف مدى قوته وسلطانه ، ولم يكن ليشك بأن مصير الكثيرين كان من المحتمل ان يكون غير المصير الذي كتب لهم على الارض وفي السماء ، لو لم يقدر « لايف فرونتناك » ان يولد .

(من « سر فرونتناك »)

مُوريَــاك

وفاؤه للبيئة التي وُلد فيها

لم يستطع فرانسوا مورياك ، بل لم يشأ ابداً ، ان ينفصل عن البيئة التي تم فيها تكوّنه . فظل قلبه وفياً في عناد لمدينته « بوردو » ، واقليمه الغسكوني ، ومشاهد صباه ، وصداقات شبابه ، وذكرى أسرته ، ولا سيما أمه ، رغم تطور فكره تطوراً حراً في جو آخر ، وحسب قواعد اخرى .

« بوردو »

قالت مدينتي : لا ! لا تكن عاقاً . فهؤلاء التائهون الذين يشعرون بالحاجة الى التطواف ليكتبوا كتاباً ، لم يبدأوا حياتهم بالتأكيد ، في منزل رحب من منازل الاقاليم ، ولم يستلقوا في أظل غابة مألوفة ، ولا استوقفوا للعب والضحك حول كنيسة مدرسية يهيمن عليها الوجود الالهي ، ولا كان لعصرونياتهم رائحة الاشجار المثمرة ، والخزائن الطافحة بالمربيات والمشروبات المستخرجة من حشيشة الملاك ، والخوخ المكبوس بالكونياك ، ولا ارتفع صرح مدرستهم الثانوية في حديقة واسعة ذات اشجار دانية الاغصان بحيث تشتبك بها رايات عيد الرب في شهر حزيران ، ولا عرفوا من حولهم أسرة كثيرة الافراد ، يتعدّد فيها النموذج البشري ، وتبدو لهم من خلالها كل اشكال الانسان الذي مزّقته شهواته وصاغت له معتقداته المحرّمات . اما انا مدينتك ، فقد صببت كل شيء دفعة واحدة في مهدك . انك تحمل معك

مورياك

اينما كنت مادة كتبك . وبفضلي تبتسم حين تُسأل : « هل لديك موضوع لرواية جديدة ؟ » انك لا تملك سوى موضوع واحد ، هو أنا نفسي وانت نفسك ممتزجين ، وهو موضوع لا ينضب معينه ، وكتبك تنفصل منه كما تنفصل الشموس من السديم .

(من « بدايات حياة »)

بلاد الاقاليم

بلاد الاقاليم ، ارض الالهام ، وينبوع كل صراع ! ان بلاد الاقاليم تضع في مواجهة الشهوة العقبات التي تولّد المأساة .

فالشحّ والكبرياء والحقد والحب ، كل هذه الامور المرصودة ، تختبئ وتتحصّن بالمقاومة التي تصادفها . وتتراكم الشهوة في القلوب بعد ان يكون قد احتواها سدّ الدين ، وسلسلة المراتب الاجتماعية .

بلاد الاقاليم ، انها فرّيسيّة .

اما باريس ، فانها تسلب الشهوة كل طابعها ، وفيها تغوي «فيدر» « ايبوليت » يومياً ، ويسخر « تيزيه »[1] نفسه من كل ذلك .

---

(١) « تيزيه » احد ابطال اليونان ، وملك اثينا . انه شخصية نصف تاريخية ونصف اسطورية . و « ايبوليت » هو ابنه الذي احبته زوجة ابيه « فيدر » . وحين رفض ان ينصاع لرغباتها ، اتهمته بمحاولة اغوائها ، فاستنزل عليه « تيزيه » غضب « نبتون » إله البحر . وتمرض احد وحوش البحر للجياد التي كانت تجر عربة « ايبوليت » الشاب ، فاجفلت وتحطم سائقها فوق الصخور . (المترجم) .

مُوريَـــاك

وما زالت بلاد الاقاليم تحفظ للزنى طابعه القصصي ، فالزوج والعشيق والراهب المعرّف والصبي ، ما برحوا هناك اهمّ الابطال في مآسٍ رائعة . ولكي يعيش فيها اللوطيون عليهم ان يتستّروا بأقنعة كثيرةٍ ويلفوا انفسهم بسحابة مظلمة . ففي مدينة عدد سكانها مائة الف لا يعرف المرء من اولئك اللوطيين اكثر من عشرة ، فأية حيل يتوسلون ! وما أشد خطر اشباع الشهوات هناك ! امـا في باريس فالشهوات تمر سافرة الوجه مطّرحة سكاكينها واقنعتها ، واكثر من ذلك ، فان احداً لا ينظر اليها قطّ .

. . . .

العميان والصم البكم تتملكهم دائماً تقريباً شهوة الحبر . وهكذا فان الاب « دو فوكو » سوّد في قفره كمية ضخمة من الاوراق . وكان المفكر الاقاليمي الشاب الذي ليس في مقدور شيء ان يخلصه من ربقة قلبه ، يجد في ذلك غذاء لنفسه . فهو محكوم عليه في وحدته ان يغوص داخل اعماق ذاته .

وبلاد الاقاليم تعلمنا معرفة الناس . لكن المرء لا يعرف منهم جيداً الا اولئك الذين يجب ان يتحاشاهم ويحمي نفسه منهم . وبلاد الاقاليم تكرهنا على العيش في اغلظ الطبقات لبشرية مريبة الملامح . انها تقدم لنا « نماذج » من البشر . وإما نزعت من آثار « بلزاك » كل ما اغنتها به بلاد الاقاليم ، فانه لا يبقى منها الا الاسوأ والاردأ . فليست دوقاته هن اللواتي خلّدنه ، وانما هم افراد عائلة « غرانديه » .

مُورِيَــــاك

وانه لمن دواعي الاسف ان يطول الامر برجل مثل « بروست » في تصوير العالم الباريسي : فدراسة البشرية يجب ان تتم في منبعها، او بالاحرى في اواسط مجراها .

وبلاد الاقاليم تبرز لنا الشهوات الحادة والسدود داخل الاشخاص .

وبلاد الاقاليم تقدّم لنا مشاهد . فانت تظن انك قد اضعت وقتك في هذه الارياف ، لكنك ما تلبث بعد سنوات طويلة ان تجد داخل ذاتك غابة حيّة ورائحتها وما يسمع فيها من همس اثناء الليل . وتختلط النعاج بالضباب ، ويمر اليمام في سماء ايام العطل المشرفة على النهاية .

(من « بلاد الاقاليم »)

البراح

... لم اتوقف قط عن العيش في الارياف الجيروندية ، ولم تجتث جذوري منها في يوم . فالرجل الذي اصبحته سبق له ان عاش في الصبي الذي كان يجلس عند منعطف الطريق ذاته ، حيث اتوقف اليوم لكتابة هذه السطور . كنت ايامها اصغي كاليوم الى صوت الريح بين اشجار الصنوبر ، لكني لم اكن اشعر بهذه الريح فوق صفحة وجهي . فالريح في ايام اعتدال فصل الخريف تحتجزها الغابة الفواحة الدافئة ، فلا يكشف امرها سوى انزلاق الغيوم ، وتأرجح قمم الاشجار ، وذلك الهدير الشبيه بهدير البحر الذي تحدثه هذه القمم في الجو .

هدير البحر؟ ذلكم هو التشبيه المألوف. لكن الريح تعول بين اشجار الصنوبر بشكل أقل توحشاً مما يفعل الاطلنطي، اذ هي لا تطلق صراخاً اشبه ما يكون بصراخ وحش اعمى اصم، وانما تبعث أنّة خاصة بها، أنّة تشبه انين البشر. وهذه الأنّة تخترق كياني انا الجالس بلا حراك وسط اشجار لا تعد، فتشارك اعماق ذاتي هذا الانين الذي لا يوصف، كما لو اني لم اكن سوى صنوبرة بين الف صنوبرة اخرى يجتاحها نفخ الريح. وربما ايقظ فيّ ذكرى البحر، تأرجح قمم الاشجار الشبيهة بصاريات عملاقة لاسطول رملي ضخم، اكثر مما ايقظها صوت الريح.

ان الاملاك التي عشت عليها صبياً، والتي ما زلت اعاودها، تحدد مظهري الريف الجيروندي الاساسيين : الاراضي البراح والكروم. اذن لن اكلّف نفسي الحرص على وصفها هنا، هذه الغابات والدوالي، وتلك المناطق المتباينة تباين ايطاليا والنروج، المغروسة فيها بعمق جذور عرقي الفلاحي الذي لم يتزحزح عنها قط.

كنا ونحن اطفال لا نعرف غير تلك الاراضي البراح. فقد قرر الكائن الجماعي المدعو «الصبيان»، والذي لم اكن سوى قطعة منه، انه لا يمكن قضاء عطل سعيدة خارج بلاد الصنوبر والرمل والجنادب. أمّا معرفتنا بالكروم التي احببتها كثيراً فيما بعد فكانت جد سطحية. وكانت أمي تؤكد ان شيئاً في الدنيا لم يجعلنا نرغب في ان يكون قدرنا كقدر اولئك الصبيان التعساء الذين يظنون انهم يلهون سعداء في «رويان» او «اركاشون» او «بنيير». وكنا

مُوريـــاك

نحن انفسنا مقتنعين بذلك . وهكذا دخلت كياني الى الابد تلك الصيفيات المحرقة ، وتلك الغابة التي تعجّ بالجنادب تحت سماء جافّة كان يكدر صفوها احياناً حجاب الحرائق الكبريتي المنتشر . وهنا كان صوت نواقيس الخطر اللاهث ينتزع الدساكر من فزعها . ومهما كان بعد الظهر حاراً فان الساقية المدعوة « لاهور » ، وما كانت تجره وراءها من ضباب عائم ومروج مستنقعة بالماء ، كانت تطلق في المساء رطوبة من الخطورة بحيث كنا نتلقاها عند عتبة البيت ونحن مرفوعو الوجوه بلا حراك . وكان عبق رائحة النعناع والاعشاب الغائصة في الماء يتحد بكل ما كانت الارض البراح تركه من ذاتها في الليل بعد ان تكون قد تخلصت من الشمس وغدت اتوناً خامداً . فهناك شذى اللبلاب المحترق والرمل الدافئ والصمغ ، تلك الرائحة اللذيذة المنبعثة من هذا البلد المغطى بالرماد ، الحافل بالاشجار المبقورة الخواصر . وكنت أفكر في القلوب التي الهبتها الرحمة وآثرت ان تتألم . ولذا فان الخريف في الاراضي البراح معجزة من المعجزات . ففي بلاد كثيرة اخرى ترى ذاك الفصل « يدمي الاوراق ويحوّل لون نبات الخنشار الى ذهبي قاتم » (هكذا كنت اكتب في مواضيع الانشاء التي كان يشرّفها ان تقرأ امام جميع تلاميذ الصف) لكن لا يمكن اعتباره في اي مكان تحرّراً ، كما هو في اراضينا البراح الممحوقة ، فاليمام المحوّم في زرقة شهر تشرين الاول الكدرة ، دليل على ان طوفان اللهيب قد انتهى .

(من « بدايات حياة »)

مُوريَـــاك

من ذكريات الصداقة

التقينا للمرة الاخيرة في « مالاغار » ذات أحد من شهر آذار ١٩١٥ . لم يكن في نفسي ما يشعرني بالموهبة التي منحنيها الرب على هذه الشرفة التي كنا نرى منها اظلام النهار في ايام سعيدة لا تحصى . لم يكن لدى اندريه [1] إلا ساعة واحدة يقضيها معي ، فقد كان راغباً في استنشاق الرائحة الفائحة في قاعة الاستقبال . ثم جلسنا امام المنظر . كان يسعل قليلاً . وكانت السحب تنزلق فوق التلال الواطئة . اني لأتمثل ذلك الوجه المتناسق ، وذاك الجبين العالي ، وذياك الفم القليل الكلام ، حين كان يقطف ازهار البنفسج . وفي لحظة للوداع قبّل كل منا صاحبه . ومن الشرفة تمكّنت ان اتابع طويلاً سحابة الغبار التي حملت صديقي الى الابدية .

(من « حياة شاعر وموته »)

حب الاسرة

تذكر ذلك الوجه المضنى ، وجه أمه ، في نهاية يوم جميل من ايام ايلول في « بوريديس » ، وتلك النظرات التي كانت تبحث عن الله وراء أعلى الاغصان . « احب ان اعلم يا صغيري « ايف » الذي يعرف اموراً كثيرة ... ترى هل ما زال من هم في السماء يفكرون في الذين تركوهم على الارض ؟ » واذ لم يكن باستطاعتها

(١) هو الشاعر « اندريه لافون » .

مُوريَـــاك

ان تتخيل عالماً لا يكون فيه ابناؤها حبّات قلبها ، فقد وعدهـا « ايف » بان كل حب سوف ينتهي في الحب الاوحد . وفي هذه الليلة ، وبعد سنوات عديدة ، ها هي الكلمات التي قالها لتعزية أمه تعاود ذاكرته . ان نور النواسة يضيء وجه « جان لوي » الرائع وهو نائم . يا للبنوّة الالهية ! يا للشبه مع الرب ! لن يتحطم سر عائلة « فرونتناك » ، لانه شعاع حب ابدي منكسر خلال عرق مـن الاعراق . ان اتحاد الازواج والاخوة والابناء المستحيل بقاؤه سوف يهلك قبل ان يمر وقت طويل ، وستشهد آخر صنوبرات «بوريديس » — لا عند اكعابها في الوادي الذي ينتهي عند السنديانة الكبيرة ، وانما أعلى من ذلك وفوق قممها بكثير — مرور موكب الام وابنائها الخمسة المشدودين بعضهم الى بعض حتى الابد .

(من « سر فرونتناك »)

مُوريَـــاك

أزمة الوجدان الديني

بدأ فرانسوا موریاك ، وهو بعد غض ، يعيش مأساة تقطّع قلبه بين حب الدنيا وحب الله . ومن هنا التوتر الروحي في اعماله القصصية . وان ابحاثه و« مذكراته » والاجزاء المتعلقة بالذكريات والبوح بالاسرار ، لتسمح بتتبع التطور لازمة قد لا تكون وجدت الحل المنشود قط .

رعشات الثورة الأولى

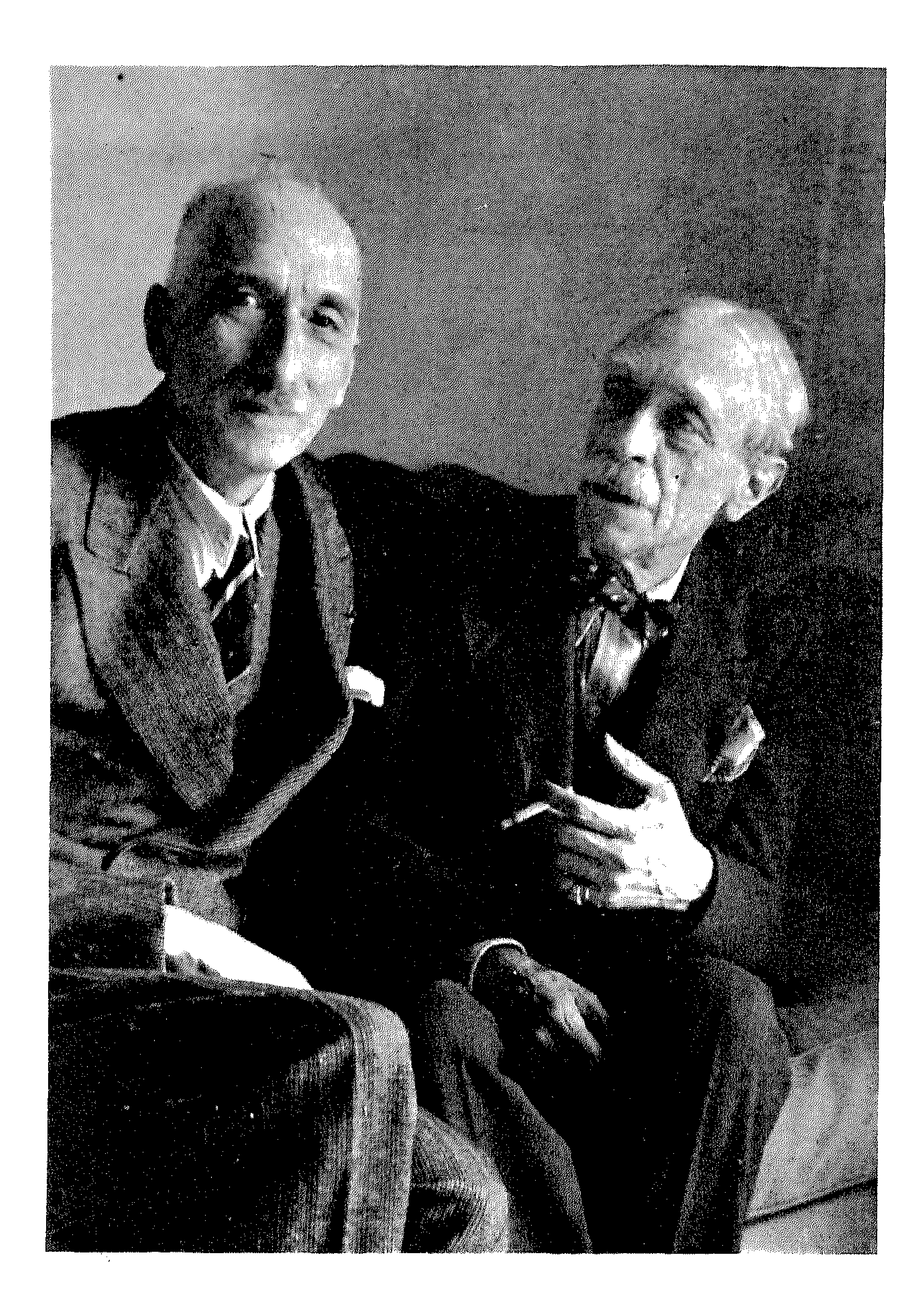
اني لاعتبر المأساة التي عشتها في « بوردو » ، وهي مأساة بعض مراهقي بلاد الاقاليم ، اخطر جوانب الحياة في تلك المدينة . وتتمثل المأساة في كبت حياة الفرد الخارقة ومنعها من التعبير عن ذاتها ومن كل تفتح ممكن . فقد كنت في الثانوية وداخل الاسرة جزءاً من كل ، ولم يكن لي وجود الا بالنسبة الى الجماعة . كنت التلميذ الذي عوقب لأنه يرفض ان يلعب الالعاب المشتركة ويفضل الاحاديث الخاصة رغم انف النظام . وكذلك كنت انا واخوتي ننتسب داخل الاسرة الى تلك الجماعة المدعوة « الصبيان » ، كما لو أنك تقول «البطّات» .
« من كسر هذا الاناء ؟ انهم الصبيان . لقد خلصنا الراهب من الصبيان ... انه صحبهم الى « ترتيهوم » ... »

ـــــــــ مُوريَــاك

وكان الحصول على غرفة يمكنني ان اكون فيها وحيداً ، رغبة مجنونة لم تتحقق ابداً ، لا في صباي ولا في شبابي ؛ الرغبة في جدران اربعة كان من الممكن ان احس بينها بأن لي كياناً ، او ان اخلو فيها الى نفسي على الاقل . ولا ريب في ان الذي كان يشاطرني غرفتي من اخوتي كان يتألم مثل ألمي ، لان الامر بلغ بنا الى حد أن الواحد منا لم يعد يرى الآخر تقريباً بفضل حرصنا على تحديد مجالاتنا المتوافقة . واني لاذكر كلمات غير جارحة كانت تبلغ اغوار ذاتي : « النظام مقرر للجميع ... انك لست ابداً كالآخرين ... مع انك لا تختلف عنهم ، اليس كذلك ؟ انك مصنوع من الجبلة ذاتها ... »

ان ما كان يهمني من ذاتي هو بالضبط ما تختلف فيه عن الآخرين . واخيراً وجدت ذاتي في الريف ، اولاً لاني تخففت من الثانوية ، ثم لأنه كان في مكنتي ان انفصل اكثر مما هي الحال في المدينة ، عن الجماعة المدعوة « الصبيان » بالرغم من بقائي عضواً فيها . واذ كنت اجلس فوق جذع صنوبرة مقطوع ، وسط احدى الاراضي البراح ، وقد دوختني الشمس والجنادب ، وانتشيت بوحدتي بكل ما في الكلمة من معنى ، لم يكن في مقدوري ان احتمل مواجهة نفسي التي طالما صبوت اليها ، وما كنت لأجد نفسي إلا لأفقدها من جديد ، واذوب في الحياة الكونية الشاملة .

(من « بدايات حياة »)



نيسان ١٩٤٣ برفقة پول ڤاليري

مُوريَـــاك

بين « سيبيل » والمسيح

ان « يضيع المرء في الحياة الكونية الشاملة » ، معناه الانخراط في المذهب الحلولي . والصراع بين الحلولية والمسيحية الذي عاشه « موريس دو غيران » قبل مورياك بثمانين عاماً في منطقة نهر « الغارون » ، جسّدها هذا الاخير احسن تجسيد في قصيدة « دم آتيس » التي بدأ نظمها شاباً وحملها في نفسه طويلاً يتعهدها وينضجها قبل ان يستخدم مقاطع طويلة منها في « دروب البحر » وينشرها كاملة عام ١٩٤٠ .

وتتألف مادة القصيدة من زفرات « سيبيل » المولهة بآتيس القانطة من قدرتها على امتلاكه لأن طبيعة محبوبها الشاب تقضي بأن يحفظ نفسه لانواع اخرى من الحب . لقد كان باديً بدء يحب مخلوقة تنبض بالحياة هي الحورية « سانغاريس » ، ثم راح ، وقد تحوّل بقدرة قادر الى إله مخلّص ، يتأجج بمحبة روحية ما كان للالهة المتجسدة في اللحم والدم ان تعرفها قطّ .

زفرات « سيبيل »

خط تراب ، وقبة كثيب
وسجف من الزبد والضريع : انه البحر ...
خط الحاجبين الناعم فوق جفنك الاسمر ،
والغابة المظلمة على طرف الجبين المقفر ،

ووجهك الذي تضيئه نار حدقتين ،
نجمتا ليلي اللتان سيحرق لهبهما التوأمان
عالماً آخر حين تغفو ،
« آتيس » ، اني اخلط كل شيء في حلم وحيد :
صبي يدمرني واوقيانوس يقرضني .

. . . .

احيط نومتك بهالة من أزيز خافت
صادر عن الذباب ، يخترقه صياح ديك يكاد لا يسمع ،
فالنائم لا يشعر بوطأة السماء المثقلة ،
ولا يشم العبق الذي ينتزعه مني الوابل .
من اكون بازاء « سانغاريس » التي يستقبلها في احلامه ،
كائن بلا شكل يقرضه الاوقيانوس ،
انا التي لا أستطيع الصمود داخل حلقة تؤلفها ذراعان ،
انا الملكة الواسعة الجبين التي يحيطها المدّ الكئيب بالضريع الاسود
وقناديل للبحر المتقبّضة !

وهكذا لن يكون في مقدور الارض ان تسد فراغ قلب الانسان ، على الاقل الانسان الروحاني :

لقد ملكتني قبل وصولك ، وشق سابقوك الالف دروبي ،
وخمش عوسج قلبي افخاذهم العارية ،

وأدمت أغصاني المجنونة راحاتهم .
لقد شقوا الطريق وقطعوا الاغصان ،
لأجل ألا تدمى قدماك يا «آتيس » .
لكن ترى ، أكانوا يعلمون انك ستأتي للأخذ بثأرهم ،
وتنتزع مني اكثر مما أهلّت عيونهم من الدموع ؟

عبثاً ظنت « سيبيل » انها انتصرت على لامبالاة « آتيس » بتحويله الى صنوبرة ، فلم يعد بشكله الحاضر الا ميتاً لا دفء فيه ولا قلب له:

تألمت طويلاً لأفك الرباط
الذي تذوق فيه بشريتك موتاً سريعاً ،
ومن أجل عناق متحرر من كل خوف
صنعت منك هذه الشجرة ، ولست نادمة !

. . . .

وراحت صنوبرة فتية ممتدة نحو الجوهر الالهي ،
تومئ بيديها الطويلتين الى السماء .
ان قمتها تبحث عن إله ، اما جذورها المتباطئة
فتحفر دروباً متثاقلة في جسدي المظلم
هبي عبثاً (ايتها الصنوبرة)[1] خصلات شعرك لكل رياح الدنيا !

---

(١) زيادة يقتضيها السياق في العربية . (المترجم) .

ومدي اغصانك نحو الاله الذي تريدين بلوغه !
فما من شيء سيقتلع جذرك العميق
من جسدي الواسع الحدر باللذة :
لكنه كان خلوداً قصيراً ذاك الذي تحمست له « سيبيل » ،
فانتهى كل عناق حين شاءت الآلهة .

. . . .

ينبغي ان ابقي « آتيس » منتصباً حتى نهاية الزمان
تقرضه جماعات النحل والنمل .
ولسوف تغدو جذورك جُمّة شعر ميتة ،
وافاعي نائمة فوق قلبي الى الابد .

. . . .

اني امدّ هذه الشجرة الميتة نحو الآلهة التي اتحداها ،
وانكمش بكليّتي حول شجرة ميتة .
ولكن اليك ما هو اعجب وادهش ، إنه تحوّل «آتيس» الى اله مسيحي :
ولكن ها إن قادماً اخيراً يرقد فوق « سيبيل » .
انه لم يهمس باسم انثى من البشر ،
ولا بحثت يداه في الظل عن جسد غائب .

. . . .

كان هو ذلك الصبي نفسه ، «آتيس» آخر ،

متمثلاً في كل هذه الصنوبرات الناعسة في السماء .
وكان في قلب هذا الكائن الغافي إله يتألم ...
إله مضرّج بدم أخاف « سيبيل » .
وقالت « سيبيل » : لا أجروُ على الدنو من الصبي ،
فانا احب الاجساد لا النفوس الخالدة .
ان رحمة إلهه تغمره وكأنها الماء .

. . . .

اني لانكر ذاك الآتيس الذي كنته ،
فربك قد خلصك من الوحش الخسيس الرقيق
الذي لم تحتفظ منه إلا بقدر من الرماد
لتغطية نار لن تنطفيْ ابداً .

. . . .

من بلاد البحر ، حيث تلتهب غابات الصنوبر
تحمل اليك ريح الجنوب التي تموت عند الزيزفونات الذابلة ،
عطر جسد « سانغاريس »
منافستي التي اكرهها ، والتي ادعوها لمساعدتي .

. . . .

ولكن بلا جدوى ! انك تنتصب اقوى من الصيف المحتضر ،
وقد اتسخت ركبتاك ببعض الطين .

. . . .

لن يظل دمك ولا جسدك يتواطآن
مع الاوقيانوس الشاحب والغابات الحزينة .
ان بدنك لا يطيع المدّ ولا الجزر ،
ولا يطيع النسغ المنبجس من « آتيس » ،
فهذا الصبي النحيل القاسي يعرف لذّات اخرى ،
وتكسّراً آخر ، وموتاً احسن من الذي
تلاقيه موجة منتزعة من غيهب جسد .

وغلبت « سيبيل » ، غلبها « آتيس » روحاني . وبالرغم من ذلك فان الالهة المتجسدة في الدم واللحم لم تُدَن بعد نهائياً ، ولسوف يكون لها نصيبها من وجود خالد ، بعد ان يكفّر عنها الاله سيئاتها ببعث الرفات البشرية :

في اليوم الآخر ستهرع خارج جنبي المفتوح ،
هذه الاجساد المختلطة داخل « سيبيل » ،
ومليارات الموتى الراقدين في البحر .

. . . .

ان نصيبي من الخلود يبقى مع « آتيس » .
ولكيلا تموت « سيبيل » للفانية ،
تتزوج برباط شديد قلوبنا الغائصة

مُوريَـــاك

نحن الذين لا نحصى وكل واحد منا « آتيس » !
انك رفاقي ، يا رفاقي انك انت التي ستنشرين .

(دم آتيس)

من الاعمال الكاملة ، الجزء السادس

توبة « جان راسين »

حين دعي مورياك عام ١٩٢٧ لكتابة مؤلف عن « حياة جان راسين » ، كان قد تأثر بالالفة التي يكنّها لذاك الكاتب الذي يشبهه في كثير من النواحي ، والذي استنكف ذات يوم عن « عيش الشهوات ووصفها » بدوافع « اختلط فيها الحذر الانساني بنداء الرحمة » .

لا ريب ان « راسين » انجب « فيدر » وهو في حالة كرب كان فيه للدين نصيب . ولم يكن ذلك الاله الذي يكربه إله اليسوعيين ، ولا إله الملك . فهل يكون « راسين » تقياً مزيفاً ؟ لا سبيل الى دعم هذا الرأي . ولأن يكون الملك قد بذل جهده لاقصائه عن المسرح ، فهذا ما سنتبيّنه في حينه . لكنها كذلك الحقبة التي ابدع فيها على مهل آخر مسرحياته الدنيوية . ولا يمتّ الروح الديني الذي طبعها به بأية صلة الى ذلك الروح الذي اخذ اهل الفطنة يتظاهرون به في البلاط . فإله « سان سيران »[1] يهيمن بوطأة مرعبة على « فيدر » .

(١) اسمه « جان دوفيرجييه دو هوران » ، راعي ابرشية « سان سيران » وأحد علماء اللاهوت الفرنسيين . ولد في « بايون » (١٥٨١ – ١٦٤٣) ، وكان صديقاً « لجنسينيوس » مرشد دير « بور رويال » حيث كان له تأثير شديد . (المترجم) .

مُورِيَــاك

واذا كان « راسين » قد فكر في انتزاع اعجاب احدهم ، فلم يكن هذا لويس الرابع عشر ، وانما « ارنو الكبير »[1] ، وكل القديسين الذين تطاول عليهم .

ولم يتوقف عن الاعتقاد بما غرسه « نيكول »[2] في رأسه ذات يوم من انه مسمّم افكار ومضلّ نفوس ، وانه سيضلّ منها الكثير ما دامت اعماله تمثل على المسرح . انه شاعر عصره ، عصر جنّد فيه الطموح والحب الكثيرين من امثال « اورست » و « روكسان » ، وقضى فيه سم « لوكوست »[3] على العديد من العبيد والامراء : « ... لقد ضاعفت « لوكوست » العاملة من اهتماماتها شبه الرسمية بي ... »

ان في « فيدر » لرعباً . ولا بد أن « راسين » خاف منها طوال تينك السنتين . وقد يكون شعر بأنه أسير ، أسير رب يستخدم ضدّه

(١) « انطوان ارنو » ويدعى « ارنو الكبير » . كان دكتوراً في جامعة الصوربون وعالماً في اللاهوت . ولد في باريس (١٦١٢ – ١٦٩٤) ، وكان احد المدافعين عن الجنسينيين في وجه اليسوعيين . (المترجم) .

(٢) « بيير نيكول » عالم أخلاق فرنسي ، ولد في شارتر (١٦٢٥ – ١٦٩٥) ، وهو أحد نساك « بور رويال » . (المترجم) .

(٣) صانعة سم رومانية توسلتها « اغريبين » للقضاء على « كلود » ، و « نيرون » للقضاء على « بريتانيكوس » . حكم عليها بالموت على الاغلب عام ٦٨ م . (المترجم) .

شركاء قدماء له في خطاياه . واذ كان قد اغتذى بايمان بعناية الهية تؤثر علينا بمشيئات خاصة ، فما كان ليصيبه شيء دون ان يرى فيه دليلاً على مقاصد الهية مرعبة (...) وكان ما يطفو على السطح من اعماق صباه الملجم ، كفيلاً بأن يجعله يشحب ، هو الذي تعلّم منذ الطفولة ان لا عمل يخفى على عين الذات اللانهائية . واذا لم نكن دائماً مذنبين الذنوب التي يتهمنا بها الناس ، فان هناك اخطاء يجهلها اولئك الناس وتبقى سراً بين الله وبيننا . هل قام « راسين » باجهاض الممثلة « دوبارك »[1]؟ وهل يكون قد تسبب عن غير قصد منه في وفاة عشيقته؟ الأمر الوحيد المؤكد هو أن « راسين » كان مولعاً وهو شاب بأن يعيش في عالم مشبوه ، وكان يربطه اتفاق بأولئك الذين لا يتركون دائماً من يتواطأ معهم من اهل النعيم ، حين يرغب هؤلاء في تركهم . « ان افعالنا تتبعنا » . ولم تتوقف افعال «راسين» الشاب عن التوالد والتكاثر والتضاعف بعد عشر سنوات . وما كان اشد احساسه بتعاظم حبه للملك ! وكم كان عزاؤه بأن يعرف ان الملك يودّه ، وبأن يجثم في ظل عرشه وظل عشيقته ليقبل الركبتين المقدستين ! الملك ، الآله .

(من « حياة جان راسين »)

(١) « مرغريت دو بارك » كانت هي وزوجها ممثلين في فرقة «موليير» . وقد انتزعها « راسين » من الفرقة وضمها الى فرقته . ماتت عام ١٦٦٨ م. (المترجم) .

مُوريـــاك

أتراح المسيحي وأفراحه

يتحمس المسيحي لربط مسلكه وعواطفه ببلوغ فضيلة المحبة الخارقة. ولكن هل يتأتى له ذلك من غير ان يسحق غرائز وعواطف هي من صميم طبيعته نفسها؟ ان آلامه واتراحه لا مناص منها.

ان الشبق الذي جبلت عليه البشرية الهابطة الى الارض، لا يمكن التغلب عليه الا بلذة اقوى منه. وهو ما كان الجنسينيون يدعونه لذة الرحمة الفائزة. لكن السر يكمن في ان لذاذات الرحمة يهبها الله بلا مقابل. ويا للتمزق، حتى حين يهبها! فالمسيحي ممزق النفس ما دام مركباً من لحم ودم.

« انه لا يمكن التفاني في خدمة سيّدين »، ولكن يمكن ان يمزق المرءَ سيّدان.

« أو فإنه يحب واحداً ويبغض الآخر ... » وا أسفاه! انه يمكننا ان نستمر في محبة هذا الرب الذي نخونه، ولا سيما لأننا، نحن الذين من لحم ودم، لا نشعر بأن حياتنا تبلغ اليه. وهذا اشد ما يقاسي الخاطئُ من ألم للاقتناع به. وحول هذا الموضوع يلقى علماء اللاهوت اشد العناء في اقناعه. وان ما يخدعنا ويضلّنا هو تلك السمة الالهية التي يدين بها ولا ريب اقوى حب دنيوي للهدف اللانهائي الذي حرفناه عنه.

ومن الملاحظ ان هناك كتّاباً يلذّ لهم ان يقحموا الدين في التخبطات التي يهيمن فيها الجسد، وذلك بسبب ما تبقى من تدين في اكثر

الشهوات ايغالاً في الجسد ، اقل مما هو بسبب الغريزة وحب انتهاك الحرمات . ولا يفكر هؤلاء الكتّاب في الارتفاع بقصصهم عن طريق نكهة صوفية كدرة ، ولا في استخدام الامور السماوية كما لو كانت نوعاً من التوابل . وكما انه لا يمكن وصف المد والجزر دون الحديث عن القمر ، فكيف يمكن وصف خفقات القلب ، حتّى وان كانت قد صرفت عن مقصدها ، دون الحديث عن الله ؟ ان اولئك الكتّاب لا يظنّون بأنهم يجدّفون .

ان العقل المعاصر المختل موقوف على قبول هوية الاضداد . وهو جنون خلاّب يعفيه من الخيار ، من الرهان على عبادة الاله في مخلوقاته ، والخضوع لله من خلال غريزة الحب .

(...) وفي نفس المغتلم الذي ينكد الله عليه ، خوف خجل من العدول عن الطريدة الى الظل . ويبقى هذا الشقاء الذي يتلذذ به المرء حقيقة اكيدة ، لا تقابل الا بالوعد او بالوعيد .

ولذا يطالب المغتلم بدليل ، دليل مادي . « اذا انا لم اضع يدي داخل الجرح الذي في جنبه ... » . وهذه النعمة التّي افاد منها القديس توما ، ممنوحة لنا اكثر مما نظن غالباً . ان شفاء الصغيرة « بيرييه » بفضل الشوك المقدس ثبت « باسكال » في ايمانه ، وكذلك تلك « النار » التّي رآها ، او التّي احس قلبه بلهيبها يوم الاثنين الثالث والعشرين من تشرين الثاني ١٦٥٤ ، منذ حوالي الساعة العاشرة والنصف مساء الى حوالي الثانية عشرة والنصف ليلاً . وهكذا فانه اشار في

الورقة التي خاطها الى ثوبه تذكاراً لتلك الليلة السعيدة اشارة عابرة الى تلك النار ، حتى انه كتب كلمة « حقيقة » مرتين .

وها هوذا « بسكال » مطمئن الآن . انه يهتف : « فلينتش اولئك الذين يعتقدون ان خير الانسان كامن في الجسد ، والشر في ما يحرفهم عن الملذّات الحسية ، لينتشوا بذلك وليموتوا وهم على اعتقادهم ... »

لكن الشبق يجيب على هذه السخرية بعبارات مماثلة : « فلينتش اولئك الذين يعتقدون ان خير الانسان كامن في الدين ، والشر في الملذّات الحسيّة ، فلينتشوا بانكار ذواتهم وليموتوا وهم على اعتقادهم... » وانه لصراع لا ينتهي ، لانه لا يمكن ان يحلّ في هذه الدنيا . لكن اكثر الناس انفصالاً عن المسيحية ملتزمون بها . فالمسيح يجبر جميع الناس على ان يختاروا لهم موقفاً . فمن لم يكن منهم معه فهو ضده ، وليس في يدنا ان نبقى خارج اللعبة .

لقد ابدع المسيح مأساة الانسان ورمانا في مغامرة كان الناس قبل تجسيده يكادون يستشعرونها .

فينبغي اذن على المرء ان يختار عاجلاً او آجلاً ، ينبغي عليه اذن ان يختار (...) ان القلب لا يشيخ في الوقت الذي يشيخ فيه الجسد (...) انه لا يدخل في حسابه انذارات اللحم والدم (...) وهناك قلب للشيوخ للفتى . وعلى الانسان ان يشقى حتى آخر يوم في حياته .

مُوريـــاك

انٰنا لا نظن ابداً ان وقت اختيار الرب هو اللحظة التي نحن فيها . ولا ننفك نتوجّه الى الله حتّى عتبة القبر بصلاة « مدام دو باري » الى سانسون : « ايها السيد الجلاد ، امهلني بعد دقيقة صغيرة ... » . والشبق الحقيقي لا يحب المجد إلا لأنه يطيل الزمن الذي يستطيع فيه الانسان ان يظل محبوباً .

وقد يجد المسيحي الدعة والسعادة وراء آلامه ، شرط ان يفهم ان دين المسيح دين محبة تطهر الرغبات اكثر مما تلغيها ، محبة تخرج معها الفرحة من الحزن :

حذار ان نخلط بين ذلك الكرب الذي يفصح عنه كتاب « آلام المسيحي » ، والذي يتولّد من رفض الاختيار نفسه ، وبين ما تحس به نفس متطلعة الى الله . ان « بسكال » يشبه نفساً من هذا الطراز بطفل انتشله اللصوص من بين ذراعي أمه : « لا ينبغي ان يتهم أمه المتشبثة به في حنان وحب بما يقاسي من عنف . وانما ان يتهم به خاطفيه الظالمين » . وهذه الصورة تجعلنا نحس بالقوتين العظميين اللتين تمزقان النفس حينما تشدانها كل الى صفها (...) وعندما يتكلم الناس اليوم عن « الكبت » ، فالامر يتعلق على الدوام بأخس الغرائز ، فأكثر النزعات كآبة هي دائماً التي تكبت . الله نفسه يمكن ان يكون هدفاً لكبت مضن . فأكثر من واحد لا يقوى على صده بعيداً ، اذ ما زال هناك شعاع يتموج تحت الباب ، ويحرق الصفحة التي يهلك عندها الجحود ، وستظل آثارهم كلها مبرقشة بذلك الشعاع رغم أنوفهم .

مُوريـــاك

كان القديسون يذهبون الى القفر ، لكنهم هل كانوا يجرؤون على البقاء وحيدين امام ذلك السهل الممتد النابض بالحياة ، امام تلك الارض المصنوعة من الاجساد ، عند طرف الجسم الضخم الذي لا يستطيع الاقدام على الخطيئة ؟ لقد اتى عليّ حين من الدهر لم اكن اتلقى فيه منها غير درس واحد ، لامبالاة النهر ، واستسلام الشجرة المحنية العائدة الى الانتصاب ، المثقوبة في سَمْك اوراقها ، الخاضعة لكل هبّة . فهل عليّ ان اقلق بعد ؟ ما هذا الفتور ؟ ولكن لا . اني ارى في هذه اللحظة ما كانت بصيرتي ترفض اكتشافه حتّى الآن : هناك اجراس مغروسة على حافتي النهر غير المرئي ، وما السهل إلا ثلم شاسع ليس ما بداخله حبة تموت ، ولا حتّى قمحاً ينضج ، وانما « رغيف » دفن حياً وهو يتكاثر ويتضاعف . ويكفي ان يكون هنا ليطهّر هذه الـ « سيبيل » المثقلة المنتشية حتّى قبل ان يتم اي قطاف . واذا كانت الريح تحني الاغصان ، فانما تفعل ذلك امام القرى المتراصّة امام احد بيوت القربان . ولو قسنا المسافة بيني وبين القربان ، كما يقطعها الطائر ، لما كانت أبعد مما لو كان ذلك القربان داخل كاتدرائية . لقد طهّر سيبيل « ذلك » الذي لا اراه ، وهي تنغلق عليه « ه » ، وتخبّئ « ه » تحت حجارتها وبين أوراقها . انها تحتويه « ه » ، ولمعرض القربان المقدس اشعة الكروم والغابات .

لم ينتصر المسيح على الموت وحسب ، وانما انتصر ايضاً على توحّد الانسان . وعبثاً تحاول اتّهام الصليب بأنه جعل الحياة مظلمة ، فان

مُوريَــاك

« الكنيسة » تجيبك بفرحة تمازجها الدموع في يوم الجمعة العظيمة :
« ها قد عَمَّ الفرح العالمَ كلّه بخشبة الصليب » .

كانت الغيوم الشبيهة بالندف تتقشّع عن زرقة السماء في ذلك المساء من يوم الجمعة العظيمة في الجبل . وقد مس شغافنا « درب الصليب » فصعدنا نحو الصنوبرات المفتونة . وكانت الحيوانات تتشمّم حول الاكواخ الصامتة سر الليلة المقدسة . وكانت زقزقة العصافير التي خنقها المدى ، تصل الينا من تلك الغابة البعيدة ، وكأنها آتية من عالم آخر . ومِزَقُ الثلج فوق الارض كانت كفن « السيد » الممزّق . وكانت « سيبيل » تحس جذور « شجرة » مجهولة مضرجة بالدم تنفذ في جسدها .

(من « اتراح المسيحي وافراحه »)

موریاك أمام الكنيسة

بعد حوالي عشرين سنة على « اتراح المسيحي وافراحه » ، قدم موریاك في « حجر العثرة » بصدق جريء فحصاً عن الوجدان عند رجل تقدمت به السن بحيث بات من الصعب عليه السيطرة على مغزى ذلك الوجدان ، وهو يدّعي مع ذلك الحكم على قيمة ايمانه الديني . وقد كتب في المقدمة :

لقد اخذ عليّ في كثير من الاحيان اني لم استعمل تلك الحرية الغاضبة التي لم يكن امثال « بلوا » أو « برنانوس » يحرمون انفسهم منها . والسبب في ذلك ان ايمان ذينك الكاثوليكيين من ديباجة تختلف

في نفاستها ، ونسيج يختلف في حياكته ، عن ديباجة ايماني ونسيجه . فقد كان في مقدور ذينك المتبصّرين ان يسمحا لنفسهما بكل شيء داخل يقين متولّد من التأمل . وطبيعة اعتقادي الانفعالية التي تتجلّى في النفور الذي طالما اوحى الي به اللاهوت ، تمنع علي ان انجرف مع الجرأة التي كان ينجرف معها « بلوا » أو « برنانوس » .

وكتب كذلك خلال النص مؤكداً نوعية ايمانه فقال :

ليس هناك من هو أقل مني نزوعاً الى ان يمزج امور الايمان ، ان لم يكن بشيء من العقل ، فعلى الاقل بشيء من التفكير . فالذي كان يشدني في شبابي الى الجنسينيين لم يكن ابداً رأيهم في الرحمة ، وانما هو سحر « بسكال » في دفاعه عن الدين ، ذلك الدفاع المبني على تجربة عاشها ، والصفة الانسانية للجيل الاول من الجنسينيين في مقابل ما كنت اشتمّه من المسيحية السياسية لدى خصومهم . لكنه ليس في مقدور احد ان يكون اقل مني لاهوتية ، ولا اكثر مني اقتناعاً بما يقوله « كيكغارد » من ان الله ليس ذاتاً يُتحدث عنها ، وانما هو ذات يُتحدث اليها . ولا اقول ذلك مباهياً بنفسي ، فالواقع ان أي تفكير لاهوتي ، سرعان ما يغدو محنة لايماني ، في الوقت الذي يغتذي فيه من خطب النساك . فما ان يتبرع احد بأن يقدم لي البرهان ، حتى اضلّ الطريق ، وما ان يجعلني احد ألمس صلة روحية ما ، حتى أبادر الى الانخراط فيها دون اي جهد ...

(...) واني لا اكتفي هنا بالكشف عن ملمح من ملامح طبيعتي ، هو أني ابلغ الله في نفسي وفي نفوس الآخرين عن طريق تجربتي وتجربتهم

معه ، وبفضل مقارنة المعلومات التي يتاح لي اقامتها للتحقق من ذلك . فانا مثلاً لم اجرؤ قط ان أبوح لبعض الاصدقاء « المتدينين » بضآلة النفع الذي تقدمه لي شخصياً المجلة الراقية جداً ، و « العصرية » جداً ، التي يصدرونها . اذ إنه لا يمكننا ان نتوقع – على الاقل انا لا يمكنني ان انتظر – من اولئك الناس الذين اختاروا العزوف عن الدنيا ، وعما هو من امور الدنيا ، ان نتوقع منهم شيئاً غير سر حياتهم في اعمق اعماقها ، وغير اتحادهم بذلك « السلام » ، وهو غير السلام الذي توفره الدنيا ، والذي لا يمكن الا يكونوا قد تلقوه (...) واعترف اني لا أبالي ابداً بمعرفة رأي اصدقائي « المتدينين » في مشروع مارشال ، ولا في الثورة التقنية ، ولا في ازمة السينما الفرنسية . فهم آخر من يهمني رأيهم في هذه المشكلات . فحتى بذلهم ذاتها تفصلهم بدنياً في رأيي عن هذه الحضارة الآلية المدمرة للروح . انهم سلبية حية لكل ما تعبده الدنيا ، وهم يجسدون في الوقت ذاته ايجابية وتوكيداً لكل ما تلفظه الدنيا . وسبب وجود هؤلاء « المتدينين » في باريس اليوم ، هو المحافظة على سمة معينة ، هو ان يرددوا دون كلل باسم « سيدهم » : « انا ها هنا ، انا ها هنا على الدوام » . وهذا هو ما يفعلونه بلا ريب ، ولكنهم ربما كانوا لا يعون كثيراً ، وهم يفعلونه ، انهم غير متوافقين مع هذا العالم الذي يجهدون أنفسهم في التحدث بلغته ! وكم يود المرء لو يصيح في وجوههم ، لا صيحة الشتيمة بالتأكيد ، وانما على العكس من ذلك صيحة المديح : « تدخلوا فيما

يعنيكم ، في امر « ذلك » الذي ينظر اليكم ، في امر « ذلك » الذي تتطلعون اليه ، ومرّنوا انفسكم على ممارسة سر التأمل » .

ومورياك الذي يعجبه في الجنسينين اسلوبهم العقلاني الجلد في ممارسة دينهم ، والذي يعترف بفضل « جاكلين بسكال » في انها تمنت دخول دير « بور رويال » « لان المرء يستطيع ان يصنع فيه سلامه بشكل معقول » ، يحس بعض المصاعب ، واحياناً بعض الضغائن إزاء انواع من الورع يقبل بها ويشجعها تسلسل المراتب الكاثوليكي . لكن « حجر العثرة » هذا لا يمنعه ابداً من البقاء مخلصاً للكنيسة :

ليست معتقدات الكثلكة هي التي تخدش العقل . انها تبلبله وتفتح امامه الهاويات ، ولكنها لا تخدشه . فالذي يجعل العقل يثور هو طرق التعليق على المعتقد ، والبدع التي هي على هامشه ، والمماحكات وعمليات البرقشة ، لان بعضهم ييسر لها سبل النجاح تحدوهم احسن النيات (...) ان قابلية انعكاس الاستحقاق الى ضدها ، والشفاعة المستمرة التي تبذلها الكنيسة المظفرة لمصلحة الكنيسة المناضلة ، وذلك الكنز الصوفي الذي تحرسه الكنيسة وتفيد منه الكنيسة المريضة ، كل ذلك حقيقة أومن بها من كل قلبي وبلا ادنى عناء . لكن ايماني بالاتحاد في القديسين يجعل ابشع في نظري ذلك التمثال للقديس « انطوان دو بادو » الذي هو في متناول يد تلك العجوز التي تلامسه بيديها وتربّت عليه وتداعبه قبل ان تدس قربانها داخل صندوقة الصدقات . ان ذلك التواطؤ بين كنيستنا وأخس اشكال الورع ، وذلك الجحد الدائم لعبارة : « سوف يأتي زمان ، وقد أتى ، يعبد

فيه العابدون الحقيقيون الاب بالروح وبالحقيقة » . وتلك القاعدة المقبولة ضمناً بأنه « ليس للحاجة قانون » ، وان مالية الرهبان يجب ان تغتذي بالورع العائد بالربح ، وذيّاك الاتجار بـ «تيريز دو ليزيو» ، القديسة الطفلة الشهيدة ، وكل هذا الجانب البشري ، البشري جداً للكنيسة ، أليس شاهداً ضد الجانب الالهي الذي تزخر به؟ لا ، لا ، اعتقادي هو عكس ذلك تماماً .

(...) ان الكنيسة القديمة ، الدجاجة الأم المتنفخة الجناحين ، تعلم ان جماعة من الحشرات الطفيلية غير القاتلة تتوالد في ريشها ، ألا وهي المعتقدات الباطلة والميول المفرطة . ورجال الدين الذين يديرونها ويعيشون بألفة مع الادلة المحسوسة على الرحمة ، ومع مادة الاسرار المقدسة ، يعلمون من تجربتهم اليومية ان الكنيسة قد جعلت للناس ، لا ان الناس جعلوا للكنيسة . انهم يغضون الطرف عن كل ما يسندهم ويساعدهم على الدرب الى السماء ، وعن كل عكاكيز الورع الكاذب . فهم يعرفون ان الكذب « داخل الحقيقة » ليس هو الكذب ، مثلما يعرفون ايضاً من خلال علم مكين ان كنزاً من القداسة الكاثوليكية يتراكم منذ قرون فيجعلها ثقله تنتصر على الانحرافات والمجاملات .

ويختم مورياك كلامه بهذه الشهادة عن اخلاصه للكنيسة :

لم يبق امامنا نحن المسيحيين ، امام هذه الدرجة من القنوط الذي يجعلنا نرى بحق ان الجنس البشري محدث نعمة ، وفي الوقت الذي لا أُصادف فيه اشتراكياً واحداً قد ورث ايمان « جوريس » ، ولا

شيوعياً واحداً لا يحس انه مرتبط شخصياً بقضية الامبريالية الصقلبية (السلافية) ، وفي زمن تعيش فيه انظمة الطغيان والتعذيب بعد الانظمة الكريهة التي أوجدتها ، ويتوّج فيه تعذيب الانسان للانسان استغلال الانسان للانسان الذي اصبح ميئوساً منه (لان الذي يستغله ليس طبقة من ارباب العمل ، وانما الحزب البروليتاري المعصوم الذي لا غبار عليه ، والذي ليس لامتيازاته وحقوقه حدود) ، نقول ، لم يبق امامنا نحن المسيحيين الا ان نواجه هذا العالم المتوحش بالكنيسة الكاثوليكية ، هذا المركب القديم الطابع ، ولكنه مع ذلك مثقل بـ « الحقيقة » التي لم يُضع منها شيئاً منذ تسعة عشر قرناً ، لا مياه الغياهب ، ولا الوحل الذي يحمله .

مُوريَـــاك

رؤية عالم الناس

قال « فاليري » : « الانسان من غير انسان آخر ليس انساناً » . وغالباً ما يحدد الروائي او المسرحي شخصيته الخاصة ، ويبوح بأفكاره الحميمة ، في إطار النظرة التي يسندها الى الاشخاص والطريقة التي يراهم بها ويحكم عليهم من خلالها . وقد حدد مورياك في »اسموديه« ذلك الفضول في اكتناه اسرار الآخرين ، والاطلاع على خفايا حياة الافراد والأسَر ، عن طريق صورة عبقرية عرضها « هاري فاننغ » الشاب على مضيفته « مارسيل دو بارتاس » :

مارسيل — وذلك السر الذي كان عليك ان تعهد به الي ...

هاري — اي سر ؟

مارسيل — تعلم جيداً ؟ سر مجيئك الى هنا . اريد معرفته قبل ان اذهب للنوم ...

هاري — كان ذلك لاثارة فضولك . ليس هناك سر . او على الأقل فإن ما يمكنني ان اقوله لك لا يمكن التعبير عنه . تعلمين ان والدي ديبلوماسي ، وقد قضى مدة طويلة في منصبه

بمدريد . وقد تركت رحلاته الدائمة عبر فرنسا اذ كنت صبياً ذكرى عميقة في نفسي . كنت طوال تلك الرحلات الليلية انظر من خلال زجاج المقطورة إلى اريافكم النائمة . وكنت اتمنى ان اكون الشيطان « اسموديه » ، تعلمين ، ذلك الذي يرفع سقف البيوت ؟ ليس في العالم ابداً ما كان يبدو اكثر غموضاً في نظري من احد بيوتكم القديمة المغلقة الابواب والشبابيك تحت النجوم . كنت اتصور مآسي مجهولة ، وشهوات مشؤومة متسترة . وطالما وعدت نفسي بدخول احد تلك البيوت .

مارسيل (ضاحكة) — لست سعيد الحظ يا سيد « فاننغ » . فلو ان « اسموديه » رفع سقفنا ، لخاب أمل ذلك الشيطان المسكين ...

(من « اسموديه » الفصل الثاني المشهد السابع)

ويكشف الكاتب النقاب عن نفسه وهو ينفذ الى حياة الغير الحميمة، وعلى الاخص وهو يتخيل مخلوقات وهمية مكلّفة ان تعيش الشهوات الانسانية . ولم يسع مورياك قط الى مخالفة ذلك :

الكتابة بوح بما في النفس . وحينما نؤلف كتابنا الاول لا نكون قد علمنا ذلك بعد . وهذا البيت لكلوديل : « رجل الادب ، والقاتل وفتاة الماخور » يخدشنا بادىء الامر . ولا يعني هذا ان يشك مؤلف شاب في مادة كتبه . لكنه يظن ان زبدة الفن هي في أن يبدع من

مُوريَاك

هذه الارض وتلك السماء الداخليتين ، سماوات جديدة واراضي جديدة تبقى مادتها الاصلية مجهولة . انه يتصور الكاتب ماثلاً امام آثاره . ولأن تنتهي بعض العقول النبيهة الى اكتشافه من خلالها ، فذلك ما يبدو له ممكناً من غير ان يشغل باله . ففي رأيه ان الاستلطاف والعطف والحب كفيلة وحدها ببلوغ وجه المبدع الحقيقي المختلط بما يتخيله ، مثلما يكتشف المتنسّكون وحدهم صورة أو ظلاً أو أثراً لربهم في الكون المحسوس .

والحق انه حين لا يكفي الكاتب ان يصف الواقع ، وانما يصبو الى ان يجعله ملموساً ، وعندما يعبّر عن العواطف التي يملكها ، لانه غير راض بأن يقدم الينا وقائع ، فالذي يقدمه بين يدي فضولنا ليس عبارة عن وقائع ، وانما هو عبارة عن ذات نفسه .

ومعظم القراء اليوم ، يبحثون بالضبط عن الكاتب عينه من خلال آثاره . « ايها القارئ المنافق ، يا نظيري وأخي ! » ان القارئ يعيد هذه المسبّة الرقيقة التي اطلقها « بودلير » الى المؤلف الذي هو نظيره واخوه ، والذي يهفو الى اكتشافه وراء احد كتبه ، من اجل ان يوفر له ذلك الشبه المعلومات عن الموقف الخاص الذي يجب ان يكون موقفه من الحياة ومن الموت . اجل انه يبحث عن موقف معين ، اكثر مما يبحث عن مبادئ . فالمبادئ يجدها عند الفلاسفة . لكن غالباً ما يكون القارئ انساناً مسكيناً اعتاد الا يعرف شيئاً خارج ما يراه وما يلمسه . انه يضل الطريق في المجرد ، ولا يعرف العوم فيه . « هذا

يمكن تعلمه ... » بلا ريب ! لكن لغة الفلاسفة تنفّره ، فضلاً عن ان معظمهم يتوسل طريقة الايماء .

(...) ومن جهة ثانية فان الوقت ضيق ، وعلى المرء ان يتعلم كيف يحيا . فالصعوبات التي عليّ ان اذللها ، والتي تخصني وحدي ، والتي هي فريدة وفذّة ، كما هي الحال بالنسبة الى قسمات وجهي ، ليس هناك من قانون توقّعها وتنبّأ بها . وبينما تجد الفلاسفة لا يعرفون الا ما هو شامل ، ترى كل عمل ادبي يعكس صورة فرد . فالادب مجموعة من النماذج ، والكتاب الواحد يعبّر عن حسية مستقلة . فكيف يمكن ، منذ أن أصبح هناك أُناس يكتبون ، ألا أجد في هذا الجمهور ، نصف الشقيق ، أو شبه النظير ؟

(...) ان المؤلف يعي ما يخفيه نصف وعي . وهو يملك اسراراً وحيلاً وخدعاً يعترف بها في قليل او كثير امام نفسه . انه يستبعد غريزة التقنيع ، وهو موجود في كل مكان وفي لا مكان من آثاره . لكنه يجهل من خارج ان الملامح التي يظنها غير ذات معنى تصبح كاشفة أسرار . اننا لا نرى مسرحيتنا قطّ الا اذا كنا في الكواليس ، والكاتب لا يكاد يكون في قاعة المسرح . ولا ريب في ان الجمهور لا يرى ما اراد التعبير عنه من ذات نفسه بغفلة من ذلك الجمهور . وبالمقابل فان الناقد يكتشف في اكثر الاحيان خلة لم يفكر المؤلف في اخفائها لاعتقاده ان لا قيمة لها ، او لأنه كان يجهل وجودها ، او لأنه لم يعترف في قرارة نفسه بهذا الوجود . وهذه الشخصية التي نجهد انفسنا في ان نكونها ، والتي تشهد عليها اعمال حياتنا الرسمية ،

وتصريحاتنا المبدئية ، ووضعنا الاجتماعي ، والبيت العائلي الذي اسسناه ، هذه الشخصية لا تنفك تجاربها نسخة ثانية عن ذاتنا اكثر اختلاطاً واقل ارتساماً لاننا نجهد في ابقائها في الظل . لكنها ما تلبث مع الزمن ان تتحدد اطرها وينجلي وجهها ، لأنها عنيدة . وبفضل مستلزماتها المستمرة ، ومطالبها الثابتة الرتيبة ، تنتهي بالظهور لأعيننا واضحة ومنفصلة عن شخصنا الظاهر (بالرغم من الروابط العديدة التي توحّد بينهما) .

(من « الله ومامون »)

بعد اعتراف الكاتب بهذا ، اصبح من حقنا ان نتصفح آثار الروائي ونبحث فيها عنه ، لا في الصفحات التي يظهر بوضوح أنها من نوع السيرة الذاتية ، وانما في تلك التي يكشف فيها عن ذاته من خلال رؤيته الخاصة للعالم . وسوف نقدم اولاً مقطعين غير قصيرين من « اقدار » معبّرين جداً في هذا الصدد ، ونربط الواحد بالآخر . فإذ رسم مورياك في صرامة مشوبة برقة التآمر والتواطؤ ، صورة « بوب لاغاف » ، وبمراعاة مقرونة بتشنج عدم الاستلطاف ، صورة « بيير غورناك » ، وضع نفسه مسرحياً بين الشابين اللذين حاول ان يكونهما ، بين المقبل على الدنيا ، المتمتع بها ، الذي يتملقه الناس ويعيش حتى التطرف عقلية امتلاك الناس واستنزاف الملاذ ، وبين المسيحي المتزمت المتصلب المتحزّب للمسيح .

فـ « بوب لاغاف » ابن الموظف المستقيم يخالط عالماً براقاً فاسداً

مُوريَـــاك

يثير قلق ذويه . واذ مرض بوب ذات يوم في منزل هؤلاء ، اجتاح البيت الرصين القائم في شارع « فانو » جمهور غامض من الناس .

أخذت السيارات تقف عند مدخل البيت منذ الايام الاولى . وقاسى البواب ذلة ترداد القول : « ليس موجوداً ... » امام عدة نسوة كن يبحثن عن المصعد . وحضر شاب طويل كان من العذوبة بدرجة مضجرة اضطرت معها السيدة « لاغاف » ان تشق باب غرفة المريض « ريثما يرى بوب برهة قصيرة جداً » . لكن المريض انزعج للامر في ذلك المساء ، حتى ان حرارته ارتفعت . ومنذ ذلك الوقت صدرت الاوامر للبواب بتوقيف الزائرين وتبليغهم نشرة عن حالة المريض الصحية . وراحت احاديث مشبوهة طويلة تدور امام غرفة البواب بين أناس كل ما كان يستطيع القول عنهم هو أنهم لم يكونوا من سكان الحي .

– انتبه ، لقد حضرت احدى الأميرات . وهناك تاج على بطاقة الزيارة الخاصة بها . ثم حضر مركيز ... انه لم يكن يعرف إلا «النبلاء»...

ولم تدع السيدة « لاغاف » مجالاً للانبهار ، هي التي فقدت صوابها وكانت تتحدث عن ابنها في صيغة الماضي . وكان «اوغسطين» يجيب ، وقد تأثر على اي حال بما كان يدور حواليه : « انهم شذاذ آفاق » !

(...) وقاوم الناقه الشاب اياماً ، لكن ازهاراً سبقت اجتياح الاصدقاء المصرّين ، كانت قد زينت جميع الآنية الممكن استخدامها ،

وملأت الغرف بعطر شبيه بعطر حفلات الخطبة . وفوق مفرش مائدة بشكل لوحة مقلدة من لوحات « بوفيه » كانت تقوم علبة اهدتها الاميرة تحمل سمة محل « بواسييه » ، وتبدو اكثر شذوذاً من جلسة الاميرة فوق حشية منتفخة بلون الكرز في غرفة الاستقبال . (...) وكان الموظف يتمتم متذمراً وهو يعود كل مساء :

– ان جو البيت يفوح برائحة الرعاع والنساء اللعوبات ! ثم كان يفتح النافذة لتنقية الجو ، بالرغم من ان الربيع في تلك السنة كان ممطراً وبارداً ...

(...) أكان يمكن ان يصدق السيد «لاغاف» ان امرأته هي التي كانت تفتح البيت في غيبته للمجتاح ؟ اولاً لهذه الشابة ، المنتمية الى الطبقة الطيبة من الناس، الآنسة « دو لا سيسك » المنتسبة الى عائلة «لا سيسك» في « بازاس » ، الوحيدة التي كان « بوب » يستقبلها مختاراً، والوحيدة التي كان في امكانه تقديمها الى والدته . اما الآخرون فلم يكونوا يحضرون الا بعد الظهر ، وكانت السيدة « لاغاف » قد تلقت الامر بألا تظهر امامهم قط . لكنها كانت تسمع ضحكهم من الغرفة المجاورة وتستنشق دخان لفافاتهم . وكانت تراهم من خلال ثقب الباب او من فرجته حين تقدم الخادم واجبات الضيافة ، متحلقين حول سرير « بوب » : الاميرة ، ثم امرأة اخرى شقراء ، ثم ذلك الشاب الذي يشبه طيور الماء الطويلة الساقين ، برأسه الصغير جداً فوق كتفي رجل مصري ، ثم اليهودي البولوني ذو الشعر الشبيه بالصوف والشفة السفلى المتدلية . كان اولئك جميعاً زواره في كل

يوم ، لكن زواراً آخرين لم يكونوا حميمين مثلهم كانوا كثيراً ما ينضمون اليهم . كانوا يجتمعون كلهم في جو من مرح الشباب ، ما بين شبان ونساء شابات في الاربعين ، محتضنين بنظرتهم المهووسة نفسها ذاك الـ « بوب » العدواني الشموس الوقح الذي ما قدر لأمه يوماً ان تراه على هذه الصورة . كانوا يضحكون لأقل كلمة يتفوه بها . وما كان ليخطر على بال السيدة « لاغاف » قط ان صغيرها يمكن ان يكون على هذا القدر من الذكاء . ومن جهة اخرى فانها بصعوبة ما ميزت صوته . لقد كان حقاً مختلفاً عن « بوب » الصبي الصموت الذي كان يجلس الى مائدة الاسرة . انه يثير اعجاب اولئك القوم بشكل لا يصدق . وفكرت السيدة « لاغاف » بأن « بوب » لا يمكن الا ان يكون له بعض المؤهلات الخارقة كي يفترسه هؤلاء الاشخاص غير العاديين بعيونهم . ولم تكن تعرف انهم كانوا يتعزّون في ابنها عن شبابهم الملوث المحتضر او الذي مات ، وعن كل ما سبق ان فقدوه الى الابد ، وما لم يزالوا يتتبعون ظله في شاب زائل . كان نوع من التعبّد يجمعهم هنا ، بل سرّ كانوا العارفين الوحيدين به ، سرّ له طقوسه وطرقه المقدسة وشعائره . لم يكن لشيء في العالم قيمة بنظرهم عدا تلك الرحمة التي لا بديل عنها والتي يهربون منها . وها هم متحلقون حول جسد ما زال يلهبه الشباب الاول لبضعة ايام أخر . وكان المرض الذي غيّره بعض الشيء يجعلهم اكثر تحسساً بتلك الهشاشة وذاك الزوال . وربما كان « بوب » يشعر بأنه لم يكن بالنسبة اليهم سوى معبر يستريح فيه للحظات ذلك « الاله » الذي

يتعبّد له اولئك المتعصبون . بل ربما كان يتملكه احساس بأن من يتوجهون اليه بالعبادة ، لم يكن هو ، الانسان المعدم من الحسب والمال والموهبة والفكر . ومن هنا ولا ريب ذاك المزاج الشرير الذي كان يقابل به مدائحهم ، وتلك النزوات الشبيهة بنزوات قيصر طفلاً .

ويذهب « بوب لاغاف » لانهاء مدة نقاهته عند جدته في منطقة « جيروند » . وتضطرب « اليزابيت غورناك » ، وهي ارملة ناضجة وقور ، لوجود هذا المراهق الرائع الجمال ، ولكي تدخل البهجة على قلبه تسهل له لقاء مع الآنسة « دو لا سيسك » . ويقحم « بيير » ابن « اليزابيت » ، وهو شاب مسيحي متقشّف نقي ، نفسه داخل المأساة في خرَق حافل بحسن المقاصد .

لم تكن مخطئة هذه المرة ، فهناك شخص ما في الممشى وها هوذا الكلب ينبح . ووضعت « اليزابيت » شغلها في عجل ودلفت الى مدخل البيت :

– اخيراً ها « انتم » ذا يا ولدي ! لقد اخذ يساورني القلق .

لكن الصوت الذي اجابها كان صوت رجل :

– تقولين لي « انتم » يا أُماه ؟

– « بيير » ، اهذا انت ؟

– من كنت تنتظرين غيري ؟

– لكن كيف وصلت في هذه الساعة ؟ لقد مرت ساعة على آخر قطار ...

وتبع « بيير غورناك » والدته الى غرفة الاستقبال .

– لقد تنقّلت بالقطار طوال النهار في هذا الحر ، فأحببت ان اسير قليلاً في ضوء القمر . وقد أبقيت أغراضي في المحطة ، وصعدت على قدمي خلال الكروم (...)

– قم اغسل وجهك على الاقل .

واجاب بجفاء :

– اجل سأقوم ليكون في وسعك ان تقبليني (... (الا تسأليني اذا كانت محاضراتي قد صادفت نجاحاً ؟

– يا لك نزقاً سريع التأثر ! حسناً ، هل لاقت محاضراتك نجاحاً ؟

وتظاهر بأنه لم يشعر بتهكمها واجاب :

– لاقت كثيراً من النجاح ، ففي « ليموج » ناظرت شيوعياً وكسبت الجمهور الى صفي . لقد صافحني الشيوعي .. لكنني لقيت عنتاً اشد في « انجيه » من جانب الملكيين ...

– آه ... ولكن اجلس اذن . انك لا تنفك تدور ، وقد دوّختني .

(...) وجلس منحنياً بأعلى جسمه الى امام ، واضعاً مرفقيه فوق ركبتيه ، وغاصت اصابعه في شعره الباهت الطويل جداً . وما ان اجتازت أمه عتبة غرفة الاستقبال حتّى ناداها بغتة :

– بالمناسبة يا أماه ... هل ابن « لاغاف » عند جدته ؟

وجمدت في مكانها ويدها على مقبض الباب .

– لم تسأليني ذلك ؟

ـ لانه اذا كان هو الذي رأيته ينفر مثل ارنب بري عند اسفل الشرفة ، ويتسلل عبر الحديقة ساحباً وراءه فتاة ، فلسوف اقول له كلمتين ، هذا السافل ، ولن ارجئهما الى اكثر من هذا الصباح . فليبق عند جدته اذا اراد الانصراف الى مجونه ...

وكان « بيير » يظن ان على أمه ولا شك ان تشاركه استنكاره . لكن حنقه كان اكبر من دهشته اذ اجابت :

ـ انت يا « بيير » تفكر اول ما تفكر في الشر ... انك ترى الشر على الفور . علينا الا نحكم على الآخرين كيلا يحكموا علينا بدورهم .

ـ ولكن ما ذاك يا أماه ! ان الامر يتعلق بوغد صغير ، وانت تعلمين ذلك مثلي تماماً ... او بالأحرى ، لا ، انت لا تعلمين ما اعلم .

ـ وماذا تعلم ؟

ـ من حمد الله اني اعيش بباريس في بيئة ليس لها اية صلة بتلك التي يترعرع فيها هذا السيد الشاب ، ومع ذلك فهناك فضائح تصلنا دون ان نسعى الى معرفتها ... انه شهير ، صاحبنا هذا ! وقد سمعت احد الرفاق يقول ذات يوم عن صبي ما : « هو على كل حال ، نوع آخر من « بوب لاغاف » . ولكنّ لا يا أُمي المسكينة ، ان امرأة قديسة مثلك لا يمكن ان تفهم ماذا يعني ذلك .

وعجبت « اليزابيت » نفسها من السخط الذي كان ينبعث من

اعماق ذاتها امام هذا الابن الساحر الخطير الشأن الذي كان يفرقع بأصابعه . كان يجرر قدميه مثل « بروادان غورناك » .

– من يدريك ان هذا الصبي مفترى عليه ؟ انه لا يبدو شريراً الى هذا الحد . ولا بد ان طلعته قد سببت شقاء الكثيرات . وأتخيل ان النساء الخائبات في تلك الاوساط الباريسية لا يملكن طريقتين للانتقام .

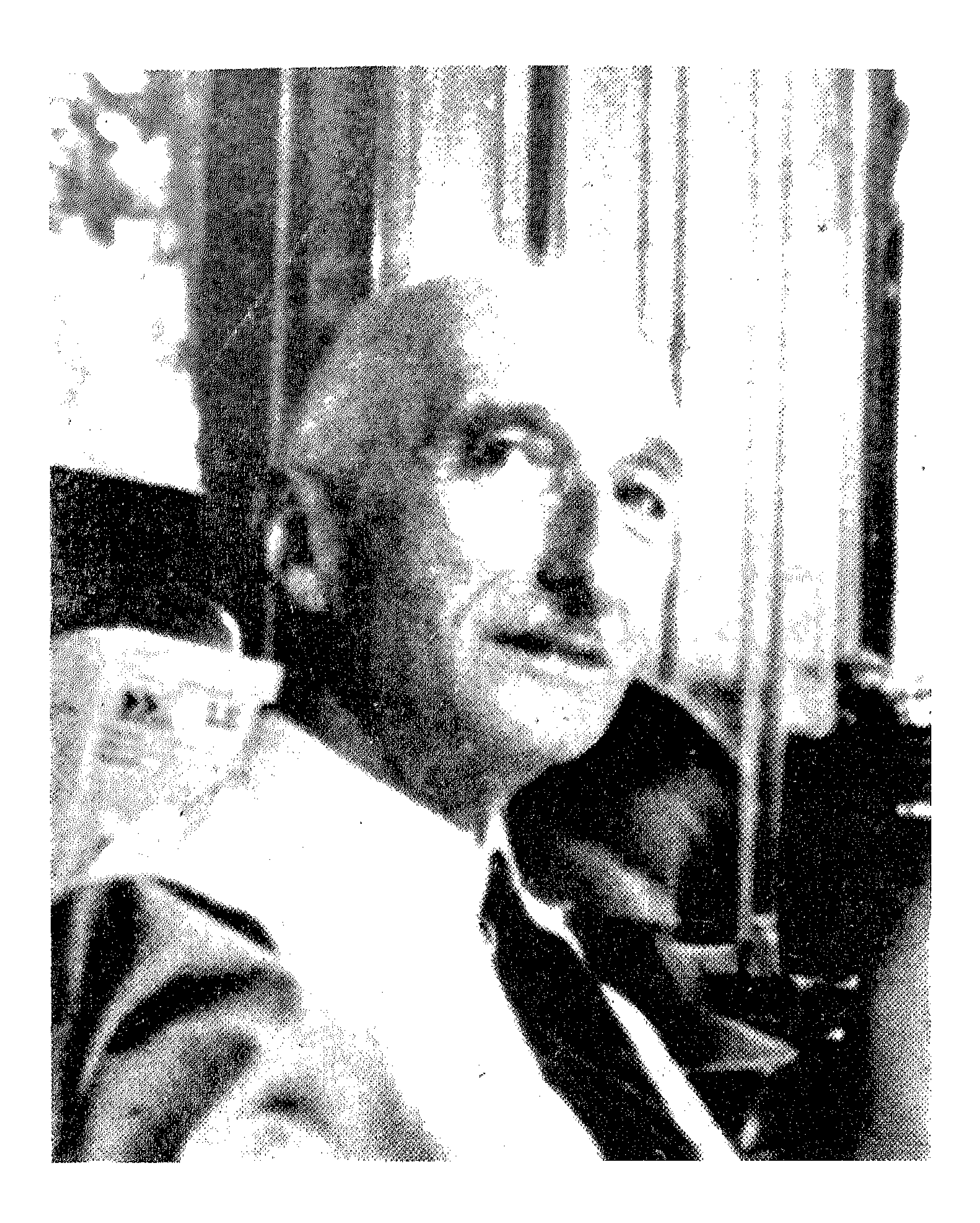
– لا ! ان هذا لا يصدق !

– ما الذي لا يصدق ؟ ارجوك يا « بيير » لا تفرقع بأصابعك هكذا ، انه شيء مزعج .

– من يقول بأنه كان علي ان آتي الى « فيريديس » لأسمع أمي تدبج مديحاً لـ ... ، لـ ...

وأخذ يتمتم دون ان يجد الكلمة التي تعبّر عن قرفه ، عن احتقاره . وقام متعثراً بالمقاعد وقد احدودب ظهره وجهر بصوته مستعيداً دون قصد منه ، في النبرة والحركة ، الطرق التي يسلكها كخطيب في المحاضرات العامة والمناظرات . وكان ما أحست به « اليزابيت » فجأة من ضيق مفرط قد ذكّرها بقراراتها ، وبما عقدت العزم عليه من عدم الوقوف في وجه « بيير » . لكن ما يؤسف له انه ، حتى قبل ان تجد الوقت لتمالك نفسها ، كان قد اثار فيها قوى المعارضة منذ ان فاه بكلماته الاولى ، فقالت :

– ماذا يفيد كل هذا يا صغيري « بيير » ؟ انك تعلم جيداً اننا نملك الافكار نفسها والايمان عينه ...



فرانسوا مورياك ١٩٥٠

لكنه تملّص وقال :

ـ لا . لا ! انك مثل جميع النساء . نعم ، انت السيدة « برودان غورناك » رئيسة الامهات المسيحيات . تفيضين رأفة بشاب ماجن ... وتجدين نوعاً من السحر والفتنة إزاء صبي متعهر ...

ـ « بيير » ، ارجوك !

ـ ومع ذلك تظنين نفسك متدينة ، وتزعمين انك تعرفين ما الخطيئة ... الحق ان لا ! انك لا تعرفين ... انك لا تقولين لنفسك بأن صبياً لا همّ له في الدنيا الا اغواء اشخاص آخرين وتلويثهم واضلالهم ، ليس سوى قاتل ، بل اخس من قاتل !

كان يضحك ساخراً ويمد قبضتيه الى الامام ويبدو وكأنه يحث الخطى نحو منبر . لا شك انه كان يتمثل في ذهنه هرب صبي مفترس وفريسته المطواع في ضوء القمر بين الخمائل والدوالي . وعلى هذه الارض ، ارضه هو ، وفوق العشب الذي سيتمدد عليه غداً ، رتع ولا شك جسداهما المتواطئان غير مباليين بهذه السماء وتلك النجوم الشاهدة على مجد وقوة لانهائيين .

ـ أصغ يا ولدي ... انك على حق . لكن استحلفك ان تهدئ من روعك ، ان مشهدك ليثير الخوف ...

ـ سمعاً وطاعة ، قولي على الفور ، اني متزمّت ، ممسوس . انصحيني كما تفعلين دائماً بأن اتناول شراب الناردين ، او حبة اسبرين في مغلي الزيزفون ، وان أحاول النوم . آه ! اني اعرفك ،

فانت لم تهتمي يوماً بغير جسدي . انك لا تفكرين إلا في صحتي البدنية . حتى ديانتك نفسها جزء من راحتك وصحة بدنك .

وكانت « اليزابيت » قد اختارت ان تقف موقف العذوبة ، والآن ما كان لشيء ان يجعلها تبدّله :

— « بيير » ، انظر إلي ، اريدك ان تنظر إلي .

وأخذت رأسه بين يديها . وفجأة انبثقت دمعتان فوق ذلك الوجه الاصفر الاجوف الحدين الذي حُلق بالعشية وبدأ يسودّ بفعل شعيرات اللحية ، والذي لطخه العرق وهباب الفحم ، دمعتان شبيهتان بدموع الصبا . كان « بيير » بفضل نقائه الذي لا حد له قد لامس ايام الطفولة التي ما زالت تغمره . وبغتة بدا في عمره الحقيقي : اوائل العام الثاني والعشرين .

(من « اقدار » الآثار الكاملة ج ١)

الذين لا يحبهم مورياك

انهم اولاً الغلاظ الخامدون المتسترون وراء رغد عيشهم وافكارهم المسبقة وانانيتهم الوضيعة . وآثاره تعج بمثل هذه الدمى المتحركة من الاب « بيلوير » الى « اوكتاف بيان » ، ومن الاب « غورناك » الى الزوجين « دوبرنيه » . واليك انجح وصف لاحداها في « عقدة الافاعي » ، البارون « فيليبو » .

وصل ابوك الى « بوردو » مع ابنته الكبرى وصهره . لا بد ان

احداً قد اطلعهم على الامر . انهم يختلسون إلي النظر ، وكان يخيل إلي اني اسمعهم يسائلون بعضهم بعضاً : « هل تراها تليق بالاصطحاب؟. ان أمها ليست كما يجب ... » . لن انسى قطّ دهشتي لرؤية اختك « ماري لويز » التي تدعوها « مارينيت » ، والتي تكبرك بعام ، رغم انها تبدو اصغر منك سناً بقامتها النحيلة وعنقها الطويل ، وجُمّة الشعر الكثّة ، وتلكما العينين اللتين تشبهان عيني طفل . وقد اثار تقززي الشيخ الذي وضعها ابوك بين يديه ، البارون « فيليبو » . وانا كثيراً ما أفكر في هذا الستيني ، منذ ان مات ، كما أفكر في اتعس من عرفت من الناس . فيا للقصاص الذي ناله ذلك الغبيّ اذ نسيت زوجه الشابة انه كان شيخاً ! كان يلبس مشداً يهصر جسده حتى ليكاد يخنقه ، وياقة منشاة عالية عريضة تخفي خديه المتهدلين وغبغبه . وكان خضاب شاربيه وعارضيه اللماع يبرز التلف في لحمه البنفسجي اللون . وكان يكاد يصغي الى ما يقال له ، لانه كان دائم البحث عن مرآة . واذ كان يجدها .. تذكر ضحكنا لو اننا فاجأنا النظرة التي كان يلقيها المسكين على صورته ، وذلك الامتحان المستمر الذي كان يفرضه على نفسه . كانت اسنانه الاصطناعية تمنعه من الابتسام ، فكانت شفتاه مختومتين بارادة لا تعرف الخور مطلقاً . ولقد طالما لاحظنا كذلك تلك الحركة التي كان يقوم بها عندما يعتمر قبعته ، كيلا يزعج الخصلة العجيبة التي كانت تنتشر انطلاقاً من القفا فوق جمجمته وكأنها دلتا نهر هزيل .

(من « عقدة الافاعي »)

واليك الآن الورعين بلا محبة . فلويس ، بطل « عقدة الافاعي » غير المؤمن ، يحلو له ان يجعل امرأته التقية تتناقض ومبادئ الانجيل :

وبدأت خطة جديدة ضدك . فكنت استميت مهما ضؤلت الظروف في ان اجعلك تتناقضين مع ايمانك ، بعيداً جداً عن مهاجمة معتقداتك وجهاً لوجه . اعترفي يا « ايزا » المسكينة بأن لعبتي كانت ماهرة بالرغم من كونك مسيحية لا غبار عليها . فلقد نسيت ان المحبة مرادف للحب ، هذا اذا كنت قد علمت ذلك يوماً . فتحت هذا الاسم كنت تجمعين عدداً من الواجبات تؤدّينها بدقة للمساكين طمعاً بالخلود في الآخرة . واعترف بأنك تغيّرت كثيراً في هذا الباب. صحيح انك الآن تعتنين بالمصابات بالسرطان ، ولكنك في تلك الحقبة ، ما ان كان المساكين – مساكينك – يتلقون الغوث ، حتى كان همك الاول ان تطلبي جزاءك من الناس الذين يحيون في كنفك . لم تكوني تتساهلين في حق ربات البيوت المتمثل في الحصول على اكبر قدر ممكن من العمل لقاء اقل نصيب ممكن من الدراهم . وتلك العجوز البائسة التي كانت تمرّ في الصباح وهي تدفع امامها عربة الخضر ، والتي كان من الممكن ان تحسني اليها بسخاء لو أنها مدت يدها لك بالسؤال ، ما كانت تبيعك خسة دون ان تستخدمي مكانتك لتبخسيها دريهمات من الربح الضئيل الذي تجنيه .

وكانت أخجل مطالبة من الخدم والعمال برفع الأجر تثير فيك الدهشة اولاً ، ثم استنكاراً كانت حدته تزيد من قوتك وتوفر لك الكلمة الفصل . كنت تتمتعين بنوع من العبقرية لتثبتي لاولئك

الناس انهم لم يكونوا بحاجة الى شيء . وكان تعداد ما ينتفعون به من حسنات ومغانم يتضاعف الى ما لا نهاية على لسانك : « انكم تملكون مسكناً وبرميل خمر ونصف خنزير تغذونه ببطاطاتي وحديقة تجنون منها الخضر . » ولم يكن اولئك الشياطين البؤساء يتمالكون انفسهم اذ هم اغنياء الى هذا الحد . وكنت تؤكدين انه كان في وسع المرأة القائمة على خدمتك ان تضع في صندوق التوفير مبلغ الاربعين فرنكاً الذي تدفعينه لها شهرياً بتمامه : « انها تأخذ جميع اثوابي الخارجية والداخلية واحذيتي القديمة . فلم تحتاج الى المال ؟ قد تقدم به هدايا لأسرتها ... »

ومن جهة اخرى كنت تراعينهم باخلاص اذا مرضوا ، فلا تتركينهم ابداً . واعترف انك طالما كنت مقدرة ، واحياناً محبوبة من هؤلاء الناس الذين يحتقرون الاسياد الضعفاء . كنت تبشرين في كل هذه الامور بآراء محيطك وزمانك . لكنك لم تعترفي قط امام نفسك بأن الانجيل يدينها . وكنت اقول لك : « اليك ... كنت اظن ان المسيح قال ... » وكنت تتوقفين للتو مضطربة حانقة بسبب الاولاد . كانت النهاية دائماً ان تقعي في الفخ ، وان تتمتمي : « لا ينبغي التمسك بالحرفية ... » وعليه كنت انتصر بسهولة واغدق عليك الامثلة لأبرهن لك ان القداسة تكون بالضبط في اتباع الانجيل بحرفيته . وحين كان يشاء لك سوء الطالع ان تحتجي بأنك لست قديسة ، كنت اتلو عليك الوصية : « اتصفوا بالكمال مثلما ان اباكم السماوي كامل . »

(من « عقدة الافاعي »)

ومثل هذه الصفحات القاسية تجاه التمسك بالشعائر والورع الجاف كثير في آثار مورياك . ومع هذا فانها لا تستجيب استجابة مطلقة لفكرة الروائي عن حياة التقى ، وانما يجب تعديلها مثلاً باعتراف السيدة « دو بلينوج » في « ما كان قد ضاع » ، او بالفحص النهائي عن الضمير الذي تقوم به « بريجيب بيان » في « الفرّيسية » :

كانت « بريجيت » قد اكتشفت اخيراً ، وهي في نهاية العمر ، ان على المرء ألا يكون مثل خادم متغطرس حريص على أن يبهر سيّده وهو يؤدي له حقه حتى آخر قيراط ، وان « ابانا » لا ينتظر منا ان نكون محاسبين دقيقين عن استحقاقاتنا الخاصة . لقد اصبحت تعرف الآن ان ليس المهم ان نستحق ، وانما المهم ان نحب .

(من « الفريسية ») .

لعبة الخطيئة والرحمة

هذا هو موضوع مورياك الاكبر ، الموضوع الملتصق التصاقاً حميماً بقلبه . ان الانسان مقيّد بالشهوات . واخس هذه الشهوات ، لا أقلها حدة . حب المال . ففي رواياته التي تصف بيئة من برجوازية الأرض ، قريبة جداً من أصولها الفلاحية ، معرض رائع للبخلاء . وهكذا نرى بطل « عقدة الافاعي » يصب حدة شهوات قلبه الجريح الخائب اول ما يصبها على المال .

لم تكن امي تريد ان تسمع الحديث عن الريع . فقد كانت تطلب ان تدفع البائنة نقداً ، وتقول : « انهم يضربون لي مثلاً بالبارون

مُوريـــاك

« فيليبو » الذي تزوج الكبرى دون ان يدفعوا له فلساً ... اظن اني اعرف لماذا ! لا بد انه كانت لهم مصلحة في إعطاء تلك المسكينة الصغيرة لهذا العجوز ! ولكن لا ، ان الامر مختلف هنا ، فربما اعتقدوا ان مصاهرتهم ستبهرني ، انهم لا يعرفون من انا ... »

وكنا نتظاهر نحن « العاشقين الشابين » بأن النقاش لم يكن يهمنا . واني لأتصور بأنك كنت واثقة من عبقرية ابيك بقدر ما كنت واثقاً بعبقرية امي . وعلى كل ، فربما لم نكن كلانا نعرف الى اية درجة كنا نحب المال ...

لا ، اني لست منصفاً . انك لم تحبيه يوماً الا من اجل الاولاد . وربما كنت تذبحينني لأجل إغنائهم ، ولكنك ربما كنت تنتزعين الرغيف من فمك لأجلهم .

اما انا ... انا احب المال ، اعترف بذلك ، فهو يطمئنني . فطالما بقيت القيّم على الثروة ، فانك لن تقدري عليّ . وتردين : « اننا في عمرنا نحتاج الى قدر قليل منه » . يا للخطأ ! ان العجوز لا وجود له إلا بقدر ما يملك . وما ان يصبح معدماً حتى يُهمل ويُطرح . اننا لا نملك ان نختار بين مأوى العجزة والمصحّ والثروة . وقصص الفلاحين الذين يدعون شيوخهم يموتون جوعاًبعد ان يكونوا قد أفلسوهم ، كم من مرة لمحت مثيلاتها بشيء من التدبيج والتنميق في العائلات البرجوازية ! اي نعم ، اني اخاف ان افتقر ، ويبدو لي اني لن اكتنز ابداً ما يكفي من الذهب . انه يستهويك ، لكنه يحميني .

(من « عقدة الأفاعي »)

مُوريـــاك

لكن الاغراء الاكبر يتمثل في الحب الجسدي ، تلك الحاجة الى امتلاك الاشخاص والجوع الى ان يكون المرء محبوباً منهم . واليك ظهور التجربة لدى الدكتور « كوريج » وهو في منتصف العمر .

كان الدكتور يشعر بأن التخيّل الذي كان يتلذّذ به يختلف بعض الاختلاف عن احلامه المألوفة . فحتّى حين كان يشطب دفعة واحدة اسرة بكاملها ، كان ولا شك يشعر بشيء من الخجل ، ولكن بلا ادنى تبكيت . كان يتملكه بالاحرى شعور بأنه يثير الهزء . كان الامر يتعلق هنا بلعبة سطحية لم يكن كيانه في اعماقه ليهتمّ لها . لا ، لم يكن قد فكر قط في أنه يمكن ان يكون وحشاً ، ولا ظن نفسه مختلفاً عن غيره من الناس الذين كانوا جميعاً في رأيه مجانين بمجرد ان يخلوا الى انفسهم خارج كل مراقبة من الآخرين .

لكنه شعر طوال الساعات الثماني والاربعين التي عاشها بانتظار ذلك الاحد بأنه كان يلامس بكل قوته احد الاحلام ، وان ذلك الحلم كان يتحول الى أمل . كان يصغي في قلبه الى صدى الحديث القريب من تلك المرأة ، الى درجة أنه لم يكن في امكانه ان يتخيل ان كلمات غير التي كان يخترعها ، يمكن ان يتلفظا بها كلاهما . وكان لا ينفك يصلح المشهد الذي يحتل فيه الحوار التالي المركز الاساسي :

— « ماريا » ، اننا انا وانت في طريق مسدود . اننا لا نملك إلا أن نموت مصطدمين بجدار ، او ان نعيش اذا عدنا ادراجنا .

لن يقدر لك ان تحبيني ، انت التي لم تعرفي الحب ابداً . يبقى ان تهبي نفسك كلها للرجل الوحيد القادر على ان لا يطلب منك شيئاً مقابل حنانه .

وهنا كان يخيل له انه يسمع احتجاجات « ماريا » :

ـ انك لمجنون ! وامرأتك ؟ واولادك ؟

ـ ليسوا بحاجة إلي . ان من حق من دُفن حياً ان يرفع ، اذا قدر ، الحجر الذي يخمد انفاسه . قد لا يكون في مقدورك معرفة مدى القفر الذي يفصلني عن تلك الزوجة وهاتيك الابنة وذلك الابن . حتى الكلمات التي اقولها لهم لا تبلغهم . ان الحيوانات تطرد صغارها حينما تكبر ، ومن جهة اخرى فان ذكورها لا تعترف بالصغار في اغلب الاحيان . اما العواطف التي تعيش بعد اداء المهمة ، فانها من اختراع الناس . وقد كان المسيح يعرف ذلك ، هو الذي اراد أن يكون افضل من جميع الآباء وجميع الامهات ، والذي تجرأ على الفخر بأنه جاء ليفصل بين الزوج والزوجة ، وبين الاولاد ومن جعلوهم يبصرون النور .

ـ انت لا تدعي انك الله .

ـ ألست في نظرك صورته ؟ ألستمدينة لي بتذوق بعض الكمال ؟ (هنا قطع الطبيب كلامه: «لا. لا. ينبغي عدم إقحام الماورائيات ! »)

ـ ولكن ما القول في مركزك ، في مرضاك ؟ في ذلك الوجود لاحد رجال البر ... فكر أية فضيحة ...

مورياك

– اذا قدر لي ان اموت ، اذن يكون عليهم ان يستغنوا عني . ومنذا الذي لا يستغنى عنه ؟ كل ما في الامر ان اموت يا « ماريا » ، اموت فاخلص من هذه الحياة المسكينة التي احياها منعزلاً كثير العمل ، لأبعث من جديد معك . في مقدور زوجتي ان تحتفظ بالثروة العائدة اليها ، ولن يعوزني ان اعولك ، فقد عرض علي كرسي في جامعة الجزائر ، وآخر في سانتياغو ... ثم اترك لولدي ما تمكنت من ادخاره حتى الآن ...

وعند هذا الحد من المشهد المتخيل كانت السيارة قد توقفت امام المستشفى . واجتاز الطبيب عتبته وهو ما يزال ذاهلاً ، وعيناه عينا رجل خرج لتوه من سحر مجهول . وما ان انتهت عيادته ، حتى عاد الى حلمه مفعماً بجشع خفي ، وراح يردد لنفسه : « اني لمجنون .. ومع ذلك ... » لقد كان يعرف من بين زملائه من حققوا ذلك الحلم الجميل . صحيح ان حياة الفوضى التي كانوا يحيونها هيأت الرأي العام لمثل تلك الفضيحة ، لكنه كان من عادة المدينة بأكملها ان تجاهر بأن الدكتور « كوريج » قديس . ولكن ماذا ! بما انه بالضبط قد اغتصب هذه السمعة اغتصاباً ، فأي خلاص له إذ يتخفف من وطأتها التي لا يستحقها ! آه ! ان يغدو محتقراً اخيراً ! حينئذ يصبح في وسعه ان يوجه الى « ماريا كروس » اقوالاً اخرى غير اقوال التشجيع على الخير ، وغير النصائح المليئة بالعبر ، ويغدو رجلاً يحب امرأة ويغزو قلبها في عنف .

(من « صحراء الحب »)

مُوريـــاك

ان حدة شهوة الحب تتمثل في انها في النفوس النشيطة بديل عن ظمأ الى اللانهائي ، ظمأ لا يمكن ريّه إلا من معين أسمى . وهذا ما تُشعر به مغامرة « ريمون كوريج » :

هذه « الماريا » ! كم ادهشه ان يكون لانسان على غير قصد منه ذلك الأثر المهم في مصير انسان آخر . انه لم يسبق له أن فكر في تلك الفضائل التي تصدر عنا وتؤثر ، غالباً دون ان ندري وعلى فترات متباعدة ، في قلوب أخرى . واكرهه الألم ، وهو يسير على الرصيف بين « التويلري » ونهر « السين » ، على ان يقطع مجرى افكاره حول هذه الامور التي لم يسبق له قط ان فكر فيها . لا ريب في انه لا شيء يثنيه عن حياته المتطورة ، لأنه يحس وهو على عتبة ذلك اليوم بتجرده من كل طموح ، وكل مشروع ، وكل تمثيل . واذ لم يبق له غد ، راح ماضيه يعجّ فجأة امام عينيه . فكم من شخص كان مجرد اقترابه منه وبالاً عليه ! ثم انه لا يعلم كم ارشد من أُناس وكم أضلّ منهم . هو يجهل انه بسببه قتلت المرأة الفلانيةبذرة كانت في احشائها ، وماتت احدى الشابات ، ودخل ذلك الرفيق الدير ، وان كل واحدة من تلك المآسي جرّت مآسي اخرى الى ما لا نهاية . وعلى شفير ذلك الفراغ الهائل الذي يمثله هذا اليوم الخالي من وجود « ماريا » ، والذي ستعقبه ايام كثيرة اخرى من دونها ، ها هو يكتشف ذلك التعلق وتلك الوحدة . لقد فرض عليه اشد انواع الاتحاد لصوقاً الى امرأة هو متأكد من انه لن يبلغها قطّ . فقد يكفي ان تبصر النور لكي يبقى « ريمون » في الظلمات ، ولكن الى متى ؟ واذا هو اراد

الخروج منها مهما كلفه الامر ، اذا هو اراد ان يفلت من تلك الجاذبية ، فأية مواكب اخرى ستنفتح امامه سوى مواكب الذهول والنعاس ... ؟ إلا اذا انطفأ في سمائه ذلك النجم المفاجئ ، كما ينطفئ كل حب . لكن « ريمون » يحمل بين ضلوعه تلك الشهوة المحتدمة الموروثة عن ابيه ، شهوة عارمة كفيلة بأن تولّد حتّى الموت عوالم اخرى حيّة ، وعدداً من « ماريا كروس » يكون تابعهن الذليل واحدة بعد اخرى ... وينبغي قبل موت الاب والابن ان يتجلى لهما اخيراً « ذلك الذي » يستدعي ويستخرج ، دون علم منهما ، ذلك المدّ المحرق من اعماق كيانهما .

(من « صحراء الحب »)

كيف يتمكن الخاطئ الذي يعيش منطوياً على ندم خال من الحب ان يخرج من ظلام ليله ؟ اليك شيخوخة « تيريز ديكيرو » الموحشة :

مضت « تيريز » الى النافذة ففتحتها . كانت السماء تمطر ، وواجهة دكان الصيدلي ما زالت تلمع . وكان اللونان الاخضر والاحمر يلتمعان في صفحة احد الاعلانات على ضوء مصباح الشارع . وانحنت « تيريز » تقيس ببصرها المسافة الى الرصيف . كانت كأنها تجس الفراغ . لم تكن تملك أقل جرأة على الاندفاع ! ولكن الدوار قد ... كانت تستدعي الدوار وتحتمي منه . وبسرعة اقفلت النافذة وتمتمت : « جبانة ، جبانة ! » انه لفظيع ان يتمنى المرء الموت لغيره حين يخشاه على نفسه .

مُوريَـــاك

البارحة كان قد مضى خمسة عشر عاماً على خروج « تيريز » مصحوبة بمحاميها من محكمة المقاطعة ، واجتيازها الساحة الصغيرة المقفرة وهي تردد : « لا وجه لاقامة الدعوى ! لا وجه لاقامة الدعوى ! » . لقد ظنت انها اصبحت طليقة اخيراً ... كما لو كان من حق البشر ان يقرروا ان جريمة لم تحدث ، في الوقت الذي تكون قد حدثت بالفعل ! لم تكن تشك في ذلك المساء انها ستدخل سجناً اسوأ من أضيق رمس ، سجن فعلتها الذي لن تفر منه ابداً .

« لو انني فقط لم أزدرِ حياة غيري ، وانما حياتي ... » لقد كانت غريزة البقاء تعتمل بحدة في كيانها منذ محاولتها الوحيدة الانتحار في « ارجيلوز » ، حتى في ساعات القنوط . لقد اتبعت نظاماً صحياً معيناً طوال خمسة عشر عاماً ، وفي أشد اوقاتها بلبلة واضطراباً . فكانت ترعى على الدوام قلبها المريض .

(...) واحست « تيريز » بالبرد ، وحكّت عود ثقاب بنعلها فأخذ لهبه يلحس طرف ذلك الخشب الرديء الذي يشترى غالياً جداً في باريس . لكن زفير النار ورائحة الدخان ذكرا المرأة اللاندية بعهود البراءة ، عهود ما قبل الفعلة ... وقربت مقعدها ما أمكن من النار المشتعلة ، وراحت ، وقد اغمضت عينيها ، تداعب فخذيها بالطريقة التي كانت تلاحظ فيما مضى ان العمة « كلارا » تستخدمها .

وكان ذلك العطر العابق عند بدء اشتعال النار يحتوي على عطور كثيرة اخرى : رائحة الضباب فوق بلاط الشوارع الحزين في

« بوردو » ، وفوق بلاط مركز المقاطعة ، ورائحة العودة الى البيت . وراحت بعض الوجوه تبدو بشكل سريع مختصر على صفحة وجدانها ثم ما تلبث ان تمّحي ، وجوه اولئك الذين احتلوا جانباً من حياتها ، أزمان لم تكن قطع النرد قد رميت ، ولا اللعبة قد نظمت ، أزمان كان من الممكن ان تكون الامور غير ما كانت . والآن ، ها قد انتهى كل شيء ، ومن المستحيل تغيير شيء من مجموع اعمالها . لقد اتخذ قدرها وجهاً سرمدياً . وهذا ما يعنونه بقولهم : خلد ، اي حين يتقين المرء من انه عاجز عن إضافة شيء الى ما هو كائن أو حذف شيء منه .

(من « آخر الليل »)

ومع ذلك فان باب الغفران يبقى مفتوحاً على الدوام في وجه المسيحي ، ويعود اليه الأمر في ألا تنغلق حياته فتغدو قَدَراً . ففي اليوم التالي لجريمة « فيوليت نوزيير » الشهيرة علّق مورياك في « مذكراته » على « الاستنكار الشامل الذي أثارته قاتلة ابيها الصغيرة في كل مكان » . وبعد أن ألح على تضامن جميع الناس على الشر ، خلص من تأمله على النحو التالي :

اما في هذا الصباح فقد توقفت في زاوية آخر الاخبار عند السطور التالية :

« تبدو ف . ن . اليوم أقل انهياراً وهي تطلب باستمرار مقابلة الكاهن المرشد . ولسوف يصل هذا من باريس ... » هذه البائسة

التي كانت تردد كلمة « مرغريت » في « فاوست » ، وهي تحتضر في اعماق زنزانة : « العالم اخرس كأنه قبر » ، لأنها لم تكن تملك مواصلة أي قلب نابض . ان هذا المخلوق الذي لا ريب في ان الناس يواجهونه اليوم باكثر ما يملكون من ازدراء على وجه الارض (حتى أمها نفسها تأخذ عليها انها لم تمت) ، ما زالت تحتفظ بسلطان على المسيح ، فالأمر يعود اليها في ان يُغفر لها . لقد صاح اخو «مرغريت» الذبيح في وجهها : « حتى لو غفر الله ذاته لك ، فلن تخف عنك اللعنة على الارض ... » ذلكم هو سر الاسرار : ليس لله مثل تقززنا . ان الله لا يتقزز . ولن يقتصر الامر على ان قاتلة ابيها سيغفر لها ويرأف بها اذا هي شاءت (ولعل مشيئتها قائمة في هذه الساعة التي اكتب فيها) ، وانما سيخصها الناس بشيء من الايثار بسبب شقائها الذي لا يعادله شقاء ، وفرط الخزي الذي ينتظرها فيما بعد . هذا الخزي ، اي كنز يمكن ان يغدو بين يديها ! فهل تراها تعلم ؟

ان الشابة الضائعة — وهي مجرمة بين مجرمات يشرن اليها بالبنان ، بل هي اكثرهن دناءة — الوحيدة في العالم وسط هذه الصحراء التي يخلقها من حولها الى الابد ذعرها من جريمتها المزدوجة ، تملك مع ذلك الحق في الاقتراب من القربان الصغير ، مثلها مثل راهبة كرملية ، بل مثل اي واحد منا ، وبنقاء الضمير ذاته .

(من « المذكرات » ج ١)

انه السر الرهيب للنفوس التي ينهشها الالم ، والتي قد لا تجد الغوث اللازم لكي تنجو منه ! وعلى النقيض منها تلك النفوس السليمة ،

مُورِيَـــــاك

وعيون بعض الاطفال الصافية التي تطل منها الرحمة وكأنها تفتح طبيعة بلا خطيئة ، والتي يصدر عنها نوع من عدوى الطهر . ذلكم هو الصبي « لوقا » في « عقدة الافاعي » :

اذا كنت اتحمل وجود « فيلي » المرعب لنفسي ، فذلك لأنه ربما يذكرني بصبي آخر ، هو هذا الذي قد يكون جاوز الثلاثين اليوم ، ابن اختنا « لوقا » الصغير . اني لم اجحد فضيلتك يوماً ، وقد اتاح لك ذلك الصبي فرصة ممارستها . لم تكن تحبه ، اذ ما كان في ابن « مارينيت » شيء من أُسرة « فودوديج » . كانت عينا الصبي سوداوين ، وشعره منسدلاً فوق صدغيه كأنه « عوارض » كما كان « هوبير » يقول . لم يكن سير دراسته مرضياً في ثانوية « بايون » التي كان فيها تلميذاً داخلياً . لكن ذلك لم يكن يخصك كما كنت تقول . فقد كان يكفيك ان تتعهده اثناء العطل .

لا ، لم تكن الكتب هي التي تجتذب اهتمامه ، فكان يجد كل يوم تقريباً وسيلة لصيد طريدة في هذا البلد الذي تقل فيه الطرائد . لقد كان يأتينا دائماً بالارنب البري المختبئ بين الحجارة والعواسج ، الارنب الوحيد في كل عام . اني ما زلت ارى حركته المرحة في الدرب الكبير بين الكروم وقد شد قبضته على أذني الحيوان الدامي المشفرين . كنت اسمعه منطلقاً عند الفجر فأفتح نافذتي ويأتيني صوته المنتعش صائحاً خلال الضباب : « سأرفع فخاخي المنصوبة في آخر الكروم ».

مُوريَــاك

كان يحدّق في وجهي متحملاً نظراتي ، فهو لم يكن يخافني . حتى مجرد فكرة الخوف لم تكن لتراوده .

. . . .

المخلوق الوحيد في الدنيا الذي لم اكن في نظره « فزّاعة » ، كان ذلك الصبي الصغير . واحياناً كنت انحدر معه الى النهر حيث كان يصطاد السمك بالقصبة . كان في مقدور ذلك المخلوق الدائم الركض والقفز ان يبقى ساعات بلا حراك ، دائم اليقظة ، وكأنه تحول الى صفصافة . وكانت حركات ذراعه بطيئة صامتة وكأنها حركات غصن من الاغصان . وكانت « جنفييف » على حق اذ تقول انه لن يكون « اديباً » . لم يكن يزعج نفسه قط لرؤية ضوء القمر من الشرفة ، ولا كان يملك احساساً بالطبيعة ، لانه كان الطبيعة ذاتها . كان ممتزجاً بها وقوة من قواها وينبوعاً ثراً من ينابيعها .

كنت أفكر في جميع العناصر المأسوية في هذه الحياة الفتية : أمه التي ماتت ، وذلك الاب الذي لم يكن ينبغي ان نتحدث عنه في بيتنا ، والمدرسة الداخلية ، والاهمال والتخلي . وكان أقل من هذا بكثير كفيلاً بجعلي اطفح بالمرارة والحقد . لكن الفرحة كانت تنبع من نفسه ، وكان جميع الناس يحبونه . وكم كان ذلك يبدو لي غريباً انا الذي كان جميع الناس يكرهونني ! كان جميع الناس يحبونه ، حتى انا نفسي . فهو يبتسم لكل الناس ، وحتى لي انا ، ولكن ليس اكثر مما يبتسم للآخرين .

وكان ما يدهشني اكثر فاكثر في ذلك المخلوق المجبول من غريزة ، وانا اراه تتقدم به السن ، طهارته وجهله الالم ولامبالاته. لقد كان اطفالنا جيدين ، هذا ما لا اريد إنكاره . و « هوبير » قضى صباً نموذجياً كما تقول . واعترف من هذه الناحية بأن تربيتك آتت اكلها . ولكن ترى لو قدر « للوقا » ان يغدو رجلاً ، فهل كان يحتفظ بهدوئه وسكينته ؟ لم تكن الطهارة لديه تبدو مكتسبة او واعية ، كانت اشبه بصفاء الماء فوق الحصباء . كانت تلتمع فيه كما يلتمع الندى فوق العشب . واذا كنت اتوقف عندها ، فلأن صداها كان عميقاً في ذاتي . ان مبادئك التي كنت تنشرها ، وايماءاتك ، والهيئة المتقززة التي كانت ترتسم كثيراً على وجهك ، وفمك الذي كنت تميل به ، كل ذلك ما كان ليولد في نفسي الحس بالشر ، هذا الحس الذي منحنيه ذلك الصبي في غفلة مني . وهذا ما لم ادركه الا بعد ذلك بكثير . واذا كانت البشرية تحمل في خاصرتها جرحاً اصلياً ، كما كنت تتخيل ، فما كان لعين انسان ان ترى ذلك الجرح في خاصرة « لوقا » : لقد خرج من بين يدي صانع الصلصال وليس فيه خدش ، مشمولاً برحمة خالصة . اما انا فكنت اشعر في قربه بتشويهي .

(من « عقدة الافاعي »)

لكن الذي يبدو لمورياك اكثر اثارة للنفس من النقاء الطبيعي في طفل من الاطفال ، فهو توثّب نفس من النفوس وهي تحاول التملص من الشر . تلك حال بطل « عقدة الافاعي » الذي يستشعر فكاكه ليلة عاصفة كان البَرَدُ خلالها يتلف كرومه .

مُوريَاك

كان يشق عنان السماء فحيح دابة ، ثم دوي تكسر هائل يرافقه وميض برق . وتلا ذلك صمت رهيب انفجرت خلاله فوق التلال القنابل التي رماها اصحاب الكروم لإبعاد سحب البَرَد او تحويلها الى مياه . وانطلقت بعض القذائف من ذلك الركن المظلم الذي ترتجف فيه « برساك » و « سوترن » بانتظار حلول الكارثة . وكان ناقوس القديس « فانسان » الذي يبعد شبح البَرَد يرن بكل قوته ، وكأنه انسان يغني في الظلام لتسكين خوفه . وفجأة سمع فوق قرميد السطح ذلك الصوت الشبيه بطقطقة قبضة من الحصى ... انها حبات البَرَد! كان ذلك يجعلني قبلاً اقفز نحو النافذة ، واسمع انصفاق مصاريع الشبابيك في الغرف . وكان يحدث لك ان تصرخ لرجل يجتاز الفناء في سرعة ولهفة : « هل الامر خطير ؟ » . ويجيبك : « لحسن الحظ انه ممزوج بالمطر ، لكن قدراً لا بأس به يتساقط منه . » وكنت ترى طفلاً مذعوراً يركض حافياً في الدهليز . كان من عادتي في مثل تلك الاوقات ان اجري حساباً : « مائة الف فرنك ضاعت هدراً ... » ، ولكنني لم اتحرك من مكاني . لم يكن شيء يمنعني فيما مضى من النزول ، كما حدث حين وجدت ذات ليلة وسط الكروم منتعلاً نعل البيت ، وفي يدي شمعتي المنطفئة ، وانا استقبل حبات البَرَد فوق رأسي . وقذفت بي غريزة الفلاح الى الامام ، كما لو أني كنت ارجو ان استلقي وأغطي بجسدي الكرمة المرجومة . اما في هذا المساء فاراني غريباً عما كان بحق خيري ورزقي . لقد حدث اخيراً ان تمكنت من الفكاك . ولست ادري يا « ايزا » ما الذي او من الذي فكني .

مُوريــــاك

كل ما اعلمه ان القيود قد انقطعت ، وها انا انحرف . اية قوة تقودني؟ أهي قوة عمياء؟ هل هي محبة؟ ربما كانت محبة ...

(من « عقدة الافاعي »)

وها عظمة انكار الذات المتناهية تلتمع . لقد تزوجت « نويمي دارتيا » على مضض جان « بيلوبير » التعيس . ولقد مات ، ولكنها ستظل تتهرب من الرجل الذي كان حضوره للحظة يثير كوامن نفسها قبل ان تغدو أرملة .

ذهبت ذات عصر في أواخر ايام الحر حتى الإكارة المدعوة « ترتهوم » ، وتهالكت منهوكة القوى فوق المنحدر . كان الوزال حولها يعجّ بطنين النحل والنعر ، وراح الذباب الخارج من بين الاغصان يلسع كعبيها . وشعرت « نويمي » بقلبها المضغوط الذي لا يملك مثله سوى الناس الاقوياء يخفق . لم تكن تفكر إلا في ذلك الدرب المغبرّ الذي اصبح مكشوفاً للهيب السماء ، بفعل ما اجري حديثاً من قطع اشجار الصنوبر ، والذي كان عليها ان تقطع منه ثلاثة كيلومترات في طريق العودة . واستشعرت انالصنوبرات العديدة ذوات الجذوع الحمراء المحززة اللزجة ، وان الرمال والاراضي البراح الملتهبة سوف تبقيها أسيرة الى الأبد . لقد استيقظ في نفس تلك المرأة غير المثقفة ، المحرومة من الذكاء ، صراع مشوش كذاك الذي مزّق نفس « جان بيلوبير » : أفلم تكن تلك الارض الملتهبة ، وحياة النسك ، هما اللتان تكرهان هذه التعسة التي يكاد يقتلها الظمأ على ان ترفع رأسها وتمد بقامتها نحو الانتعاش السرمدي ؟ ومسحت بمنديلها

المؤطّر بالسواد يديها الدبقتين ، ولم تكن تنظر إلا الى حذائها المغبرّ والحفرة التي كانت تطل منها نبتات الخنشار وكأن روؤسها اصابع منفرجة . ومع ذلك فقد رفعت عينيها ، فتلقت فوق وجهها رائحة خبز الجاودار التي هي الانفاس المتصاعدة من الاكارة . وفجأة انتصبت واقفة ، فقد توقفت امام منزلها عربة خفيفة ذات عجلتين سرعان ما عرفتها . فكم مرة نظرت من فرجة بين مصراعي شباك الى محورها اللماع بحب يفوق الحب الذي تنظر به الى النجوم ! ونفضت ثوبها المترب . كانت تسمع قرقعة عجلات المركبة ، ثم زقزقة عصفور . وظلت « نويمي » ساكنة وسط سحابة من الذباب وعيناها على ذلك الباب الذي لن يلبث شاب ان يفتحه . وراحت تنتظر وتنتظر فاغرة الفم منتفخة العنق وكأنها دابة ذليلة خاضعة . وعندما انفرج باب الاكارة ، شرعت عيناها تبحثان في الظل الذي كان جسم يتحرك داخله . واخذ صوت مألوف لديها يطلب باللهجة المحلية كميات كبيرة من صبغة اليود ... وظهر ، وكانت الشمس تضيء كل زر في سترة الصيد التي يلبسها . وامسك الشريك المكاري بلجام الفرس وهو يقول بأن الموسم موسم اخطر الحرائق ، فكل شيء ما زال يابساً . ان شيئاً لا يخضر تحت الاخشاب ، والاراضي البراح لم تبلّها مياه المطر ... وامسك الشاب بالعنان . ولم تدر « نويمي » لماذا كانت تتقهقر . كانت هناك قوة تحدّ من اندفاعها نحو ذلك المتقدم ، وتسحبها الى الوراء . وغاصت في الاغصان التي تفوق قامتها طولاً ، وراحت

العواسج تخمش يديها . وتوقفت برهة مصغية الى كر عجلات العربة فوق الدرب الذي لم تكن تراه .

لا ريب انها كانت تفكر ، وهي تهرب هكذا ، في ان اهل الدسكرة لن يرضوا دون احتجاج ان تسقط من مكانتها كأرملة معتبرة ، وان أحد بنود وصية السيد « جيروم » كان يحظر دائماً على افراد أسرة « دارتيا » ان يوافقوا على ما كانت السيدة « دارتيا » تدعوه « الزواج السخيف » . لكن ، ألم يكن من شأن غريزة « نويمي » ان تزيل جميع هذه العقبات ، لو لم يكن هناك قانون اقوى من الغريزة يكرهها على الجمود ؟ كانت منذ طفولتها محكوماً عليها بالتعاظم ، وكان عليها ان تظل سيدة حتى وان احست بالعبودية . انه لم يكن في وسع تلك المتصلبة شيئاً ما في برجوازيتها الا ان تتجاوز ذاتها . لقد كانت جميع السبل مقفلة في وجهها ما عدا سبيلاً واحداً هو نكران الذات . ومنذ تلك اللحظة ، وسط غابة الصنوبر المليئة بالذباب ، عرفت ان إخلاصها للموت قد يكون مجدها المتواضع ، وانها لم تكن تملك ان تهرب منه . وهكذا ركضت عبر نبات السميسم الى ان خارت قواها وثقل حذاؤها بالرمل ، فاضطرت الى معانقة سنديانة ضامرة تحت الثوب الخشن الذي حاكته اوراقها الميتة المرتعشة امام هبة ملتهبة ، سنديانة سوداء كانت تشبه « جان بيلويير » .

(من « القبلة الى مجذوم »)

مُوريـــاك

حقائق

نختتم بجمع ثلاثة نصوص يوجه فيها مورياك الى العالم نظرة مطمئنة واثقة ، بعد ان وصل الى نضج موهبته وأوج السيطرة على عواطفه وأفعاله ، وغدا قادراً على اتخاذ موقف المستميت للدفاع عن حقائقه .

مقاومة في وجه ميكيافيلي

لم ينفك مورياك عن المقاومة اثناء احتلال فرنسا . وكان يمارسها عملياً متصلاً برجال بينه وبينهم بعض التفاوت من امثال « بولان » و « غيهنو » و « بلانزا » و « كستّو » ؛ وكان يمارسها فكرياً في اتحاد سري مع « برنانوس » و « ماريتان » ، جاهداً مثلهم في الابقاء على فكره نقياً من تعفنات ذلك العهد ، رافعاً في وجه المتنسكين الجفاة ورجال سياسة الجبن المنتصر انتصاراً موقتاً ، مطالب انسانيته المسيحية . ومن هنا خرج « الدفتر الاسود » الذي ظهر في « منشورات منتصف الليل » عام ١٩٤٣ باسم مستعار شفاف هو « فوريز » . وفي هذا الكتاب تتقاطع فكرتان اساسيتان ، الاولى انه يجب ألا نقنط من الانسان في أسوأ الظروف والاحداث ، والثانية أن المسيحي ، الكاهن

الراعي ، لا يستطيع الترفع عن خوض المعركة حين تكون القضية قضية سلام الروح ذاته .

... الترفع عن خوض المعركة ؟ النظر من علٍ الى الجماهير المعذّبة؟ لن يتم ذلك من مكان أعلى من الصليب على كلّ حال ، ويجب البقاء عند حد ارتفاع المشنقة ، ونحن نعلم ان المشنقة التي أسلم المسيح فوقها الروح كانت واطئة جداً ، لان الكلاب كانت غالباً ما تنهش اقدام العبيد المصلوبين .

واذا لبث المسيحيون من جميع طوائفهم في قلب المعترك ، فليس ذلك رغماً عن ايمانهم ، وانما بسبب ايمانهم . ولسوف نتقدم فيه معهم ، وأيدينا في أيديهم ، ضد الرغائب ، وضد شهوات اكبر عدد من الناس ، في تيار معاكس . اجل ، فمن يمكنه ان يشك في ذلك ؟ ان رقي الجنس البشري ليس سوى حديث خرافة ، فهو لا وجود له خارج قلوب الناس ذوي الارادات الحسنة . انه ليس قدراً تاريخياً . والحق كل الحق اننا شربنا آخر قطرة من قطرات الرجاء الرحب الذي كان الناس قد انتشوا به عام ١٧٨٩ .

« السعادة فكرة حديثة في اوروبا ... » هذا ما كان ينادي به « سان جوست » الشاب . واننا لنعرف بعد قرن ونصف القرن على تلك القولة ان السعادة في اوروبا ليست سوى وهم ضائع . ومن اجل استكمال مشاريع مكيافلي باتت الشعوب تُحمل وتنفى ، واصبحت اعراق بكاملها محكوماً عليها بالفناء . ففي أي لحظة من

مُوريـــــاك

لحظات التاريخ اغلقت ابواب السجون دون أُناس اكثر براءة من الذين يسجنون اليوم؟ وفي اي عهد انتزع الاطفال من أمهاتهم وكدسوا في مقطورات مخصصة للدواب ، كما شاهدت بأم العين ذات صباح مكفهر في محطة « اوسترليتز » ؟ لقد أمست السعادة في اوروبا حلماً مستحيلاً الا بالنسبة الى النفوس الدنيئة . لا ، ليست القضية قضية سعادة ، وانما القضية هي إقامة جبهة في وجه هذا الميكيافيلي الذي لن توقف جرائمه ، حتى بعد انهيار المانيا ، أية كوكبة من الجند المكلفين الاعدام ، لانه متلبد وفعال في ملايين الضمائر ، وفي فرنسا بالذات .

(...) ان علينا ان نختار وان نراهن ضد ميكيافلي . ونحن من المؤمنين بأن الانسان يفلت من قانون التناهش ، ليس هذا وحسب ، وانما بأن كرامته كلها لصيقة بـ « المقاومة » التي يبديها من صميم قلبه وروحه . لا ، ان الفكر الانساني لا يخطئ في قضية مصيره . لا ، انه لا يخدع نفسه حين يحتج بأن ظروف العث والنمل لا تجلو له ظروفه اي جلاء . ولو لم يوث علي مر العصور ، وفي مسافة وجيزة من الزمان والمكان ، الا حركة محبة واحدة ، لكانت تقطعت الى الابد سلسلة المفترِسين والمفترَسين ...

(من « الدفتر الأسود »)

الكاتب المنافح في خدمة الكنيسة

عندما غادر فرانسوا مورياك في التاسع والعشرين من ايلول ١٩٥١

مُوريـــاك

صالة المسرح حيث كانت تعرض مسرحية « باخوس » لجان كوكتو ، اظهر عدم موافقته على بعض الكلمات في المسرحية ، ثم نشر في جريدة « الفيغارو الادبية » رسالة طويلة نثبت هنا الجزء الاكبر منها .

عزيزي كوكتو

لا تصدق ما تقوله الصحف ، فانا لم اكن محنقاً في ذلك المساء وانا اغادر مسرح « ماريني » . كما اني لم اكن اغلي من الغضب . كل ما في الامر اني كنت حزيناً لأن صالة كانت تغص بالمجتمع الباريسي تمكن روادها ان يسمعوا دون صرخة احتجاج واحدة ذلك الممثل المتقمص دور راهب الذي كان يستخدم كلمات مثل «أبانا» ليضحكهم ، « أبانا » ، « تلك الصلاة الفذّة — على حد قول رئيسة دير « سوليم » — التي تضعها الكنيسة على شفتيّ الراهب حتى في قلب سحابة جشاء ، حين يقف وجهاً لوجه مع الله ، وسط الاسرار المقدسة » . كنت ارثي لحالنا جميعاً ، ولحالك قبل الجميع . لا تخش شيئاً ، فانا لا اكتب هذا لأوذيك ! والامر في غاية السهولة . فكيف يمكن الا يعرف كل واحد منا نقاط الضعف والقوة في الآخر ، ونحن منذ أربعين عاماً جزء من تلك المجموعة العاملة في « السيرك » ذاته ؟ ها قد مر حوالي نصف قرن وانا أُشاهد برنامجك . ان في جعبتك اكثر من حيلة ، لكنني اعرفها جميعاً . وأنت اكثر الناس قسوة وهشاشة معاً . وقسوتك قسوة الحشرة ، اذ انك كوسُلها المتين المقاوم ، لكن ذلك لا يمنع انه يكفي ان يضغط المرء بعض الضغط ... ولكن لا ، لن اضغط .

ومن جهة ثانية فأنا ادّعي وازعم . فالحقيقة ان المرء لا يمكن ان يعرف غيره ابداً . فماذا يبقى منك لو طرح ذلك القناع الاخير الذي يتحدث عنه « نيتشه » ؟ ان الذين يحبونك ، لا يحبونك انت نفسك ، والذين يبغضونك ، لا يبغضونك انت نفسك ، وانما يبغضون بهلواناً . ومع ذلك فقد شعرت ذلك المساء في « ماريني » انني كنت اتألم من اجل « كوكتو » الحقيقي ، « كوكتو » غير المرئي ، « كوكتو » الذي يجهله الجميع ، ولكن الله يعرفه ويحبه .

لأننا محبوبون . هذا اساس كل شيء ، وهو ما لم تفهمه قط على ما يبدو لي ، ولا حتى في لحظة توبتك . ان المسيحية كلها تتمثل في هذا النبأ الذي لا يصدق ، وهو ان المخلوق محبوب من « خالقه »، وانه — وهذا اكثر مدعاة للدهشة — يجد نفسه ، على حقارة شأنه ، قادراً على حب « خالقه » . فما اعجب أن نحب الذات اللانهائية، ان ننادي الذات الالهية : « ابانا » ! لقد دان لك بعض مشاهديك في « ماريني » بالفرحة المرة في اللحظة التي تحول فيها « ابانا » في مسرحيتك الى ذريعة للتهريج ، كما دانوا لك حين تلفظ « جان ديزايي » ، بعدها بقليل ، بملحة قذرة حول سر القربان المقدس ، بالفرحة في ان يحسوا ان ذلك السهم المنغرس في قلب المسيح قد أصابهم هم انفسهم في صميم قلوبهم. لقد طالما احببت صيحة «كلوفيس» [1] ،

(١) هو كلوفيس الاول ملك الفرنجة (٤٨١ – ٥١١ م) ، تلقى العمادة من القديس ريمي في كاتدرائية رينس (٤٩٦ م) . وغدا حامي حمى الكثلكة في بلاد الغال . (المترجم) .

مُوريَـــاك

ذلك البربري الجلف ، حين كان القديس « ريمي » يروي له حكاية آلام المسيح : « لو كنت هناك مع جندي الفرنجة ! » اما نحن ، فقد كنا هناك ، في « ماريني » ، ولكن ماذا كنا نستطيع ان نفعل ، ماذا كنت استطيع ان افعل انا الذي لا املك صوتاً قادراً على الصياح؟ ماذا كنت استطيع ان افعل غير مغادرة القاعة ؟ بقي لي ان اكتب ، واذا انا صمتّ اكثر مما يلزم اخذت الحجارة بالصياح .

لا ، لا تعارضني ، كما تفعل في برنامجك ، بأنك لست مسؤولاً عن اقوال شخصياتك . لقد كتب احد محرري مجلة « ماتش » السذج (وهو يردد درسه جيداً) يقول : « لم ينفك « جان كوكتو » يقول بأنه طالما حاول جعل الناس يدركون مدى الشقة بينه وبين مسرحيته . انه يتحدث عنها وكأنها أمر غريب عنه » . اني لأتخيل « كوكتو » التلميذ محتجاً : « لا يا سيدي ما انا فعلت ! » في الوقت الذي ما زالت بيده كرة تفوح منها رائحة كريهة .

المهم ان « جان ديزابي » لسان حالك ، فلا تحاول الانكار انك انت الذي تتكلم حين يكون هو المتكلم . ويحدث للحظات ان ينفلت « ديزابي » من دوره ويصبح « جان كوكتو » في المدينة ، انه يشرح دور كوكتو (في السيرك) [1] . ان مسرحية « باخوس » تبدي لنا « جان كوكتو » من وجهة نظر « سارتر » ، هذا الكوكتو نفسه

(١) زيادة من المترجم يقتضيها السياق .

مُوريـــاك

الذي عرفناه عام ١٩١٠ مغموراً بآخر اضواء « روستان »[1] ، لكنه كان قد انتهى بأن يرقص « رقصة سوفوكليس » وعينه على « آنا دو نوواي »[2] . وقد سبق لكواكب رئيسية مثل « دياغيليف » و « ساتي » و « بيكاسو » و « جيد » و « آبولينير » و « ماكس جاكوب » وغيرهم ان اجتذبوا الى فلكهم هذا النجم الذكي .

لقد مر اربعون عاماً ، وها نحن في عهد « لقد مات الله » . ان هذه الفكرة موجودة في الهواء ، وقد قضيت عمرك بالتقاط لفحات الهواء . وها هي اللحظة المناسبة التي لا يمكن ان تسنح غيرها على ما يبدو ، ليسوي المرء حساباته مع هذا الميت ، واكثر من ذلك مع الكنيسة القديمة المزعجة المهذار التي تركب رأسها في ارادة اخافتنا وهي تحكي لنا حكايات عن العالم الآخر ، تلك الكنيسة التي ما زالت تنجح ، حتى بعد ان تركناها منذ زمن طويل ، في افساد تلذذنا ، والتي ما فترت تكتب بيدها المعروقة الاصابع فوق جدران قاعة الوليمة « الاسم » الذي هو فوق كل اسم . والصبي « كوكتو » يدق الارض برجله صائحاً « لا وجود لجهنم ! لا وجود لجهنم ! » لا وجود لجهنم لأنه لن يكون حساب ، ولن يكون حساب لأنه لا وجود لاله . وقد

(١) ادمون روستان مسرحي فرنسي ، وهو مؤلف « سيرانو دو بير جراك » الشهيرة . (المترجم) .

(٢) « آنا اليزابيت برانكوفان » كونتة « نوواي » شاعرة فرنسية (١٨٧٦ – ١٩٣٣) تمتاز قصائدها بطابع السوداوية والقلق . (المترجم) .

مُوريـــاك

اثبت « سارتر » ذلك بعد كثيرين غيره لم يكونوا بدورهم اول القادمين. وقال لنـا الصحفيون ان « سارتر » كان جالساً وسط الجمهور وهو يهلل بينما كان « كوكتو » يقيّد «امه» العجوز الى عمود من اعمدة «مارينيي »، وانه ظل يسخر ويهزأ طوال ثلاث ساعات.

. . . .

لقد اردت ان تتجسد الكنيسة في راهب مهرج وكاردينال سياسي هو اسوأ في نظري من المهرج، فأصابت سخريتك من خلالهما الكنيسة في صميم روحها. ولو كان معي نص مسرحيتك لأبرزت بالاستشهاد ما فيها من هزء بشع بالمقدسات، ذلك الهزء الذي يعجز عن مثله الملحدون الذين لا يعرفون « ذلك الذي » ينكرون وجوده. وكان احد الصحفيين قد أبدى دهشته لأن اثور على « باخوس »، بينما تركتني مسرحية « سارتر » بارد المشاعر. صحيح ان « الشيطان والله » لم تستفزني، لأن الملحد يحمل الى المسرح جاهداً اسباب إلحاده. اننا لم نكن ننتظر منه غير ذلك، وماذا كان في إمكانه ان يعطينا غير ذلك؟ فليس في وسعنا ان نقول بشأنه إلا ما كان يقوله بسكال: « انهم يجدفون على ما يجهلون ». ان جميع سهام « سارتر » تطيش في الفضاء. اذ مَن عساها تصيب ما دام لا يوجد احد في السماء؟ واضيف بأن « سارتر » لا يمزح إلا في الظاهر. انه يعالج بجد قضايا جدية. ولأن اقول بأننا لسنا صديقين فذلك أقل مما ينبغي. وانا مع هذا اشعر بأني أشتمه اذ اتحدث عن مسرحيته بازاء مسرحيتك. اني لا اصدر هنا حكماً ادبياً، واترك لغيري ان يقرر ما تساويه «باخوس».

لكني اريد فقط ان اقول بأن « سارتر » المسرحي يحوم حول معضلته ويجسدها انطلاقاً من معطيات متوفرة لديه وحسب اضواء يملكها . ان سارتر لا يجحد احداً ، وهو ، اذا ما استعرنا كلامه ، ليس « وغداً » . ولا أنت كذلك بالطبع ، لكن هذا لا يمنع انك ، جزء من اجزاء الحوار مع شخص آخر ، تواصل بذل جهد ماكر للتقليل من شأن قوة تشعر في كل لحظة أنها تحاسبك ، وابدائها في صورة بشعة تثير الهزء والسخرية . تشعر بذلك لانه قد سبقت محاسبتنا يا عزيزي « جان » ، وتمّ تسليم كشف حسابنا .

(...) انك توافقني ان حياتنا ، حياتنا كرجال أدب ، وحياة الاب « شارل » (اعود دائماً الى القديس الذي تعرفه) لا تستويان في قيمتهما ، وانهما لم توتيا الأكل نفسها ، ولا يمكن ان تحظيا بالامتداد السرمدي ذاته . صحيح ان هناك قداسة مختبئة داخل بعض الخطاة ، وان الفرّيسيّة تلتف حول سر القداسات الظاهرية . انني مؤلف « الفرّيسيّة » ولا يمكنك ان تعلمني جديداً عن هذا الموضوع . لكنك تقر معي انه لا يمكن الخلط بين حياة منذورة باكملها للمساكين وللواجب اليومي ولله ، وبين حياة منذورة لاشباع الشهوات . لست اعرف ما الجحيم ، ولكني اعلم اننا سنطالب بارجاع نفوسنا . اعلم انه يمكن ان نضل ونُضل معنا اخوتنا ، وان هذا الضلال يتمثل في انفصالنا ابداً عن المحبة السرمدية . هذا ما تعلمنا اياه الكنيسة في الوقت الذي تضع فيه بين ايدينا ذلك الكنز الذي لا ينضب : مشاركة القديسين . ولئن حدث في بعض العهود — العهد الذي اخترته من

تاريخ الكنيسة لأنه موضع جرح قديم من السهل دائماً نكؤه وجعله ينزف ـ ان بابوات مترفين ، وكهنة من المتاجرين بالرتب ، قد باعوا بالمال في القرن السادس عشر ما حصلوا عليه بالمجان ، فان ذلك لا يغير شيئاً من الاقتصاد السري ، الاقتصاد القائم على الاخذ والرد ، الذي يهيمن على مملكة الارواح تحت شعار خلاص البشر على يد السيد المسيح .

« المرأة المبتور نصفها الاسفل » ، انك لسعيد بأنك وجدت هذا التعبير لوصف الكنيسة المقدسة . انها لبصقة لطيفة . آه ، ان فيها ما يدعو الى «الهزل» ، والواقع ان المجتمع الباريسي قد « هزل » معها هزلاً كثيراً ، كما هزل بلاط هيرودس وهيرودس نفسه امام السيد المشوه ، وقال قائلون : « ليس غير « جان » من يحسن إيجاد مثل هذه الكلمات ... » ومع هذا فان الكاهن الذي رفع يده يوماً فوق رأسك في البيت الصغير بـ « مودون » وهو يلفظ العبارة التي بها يتم غفران الذنوب ، لم يطالبك في المقابل بغير قليل من التوبة وبداية من محبة . والقديس الذي ناولك الخبز الحي ، رمز المسيح الحي ، لم يطلب منك كذلك لا فضة ولا ذهباً . ان الكاهن لا يدري مَن نحن ولا من أين أتينا . وفي وسع اي كان ان يجثو على ركبتيه امام تلك المائدة فيأتيه « للسيد » .

« المرأة المبتور نصفها الاسفل » ؟ اتظن ان لها في الحياة تلك الصورة غير المشرقة التي يرسمها لها « بيير برتان » ؟ كلا ان لها وجهاً

كالوجه المتواضع النقي الذي يتحلى به احد قسس ابرشيتك ، وهذا هو الوجه الذي صفعته عن غير قصد منك. انها ذلك الراهب العامل في «فانسين». المرأة المبتور نصفها الاسفل؟ انها تدبر شؤون بيوت المساكين كل صباح في ثوب راهبة من راهبات « صعود العذراء » . المرأة المبتور نصفها الاسفل هي كذلك تلك المرأة ذات الرأس المجنح بالبياض التي قدمها القديس « فانسان دو بول » لجميع المرضى على الارض . ومن تكون انت لتنتصب في وجهها ؟ لقد كتبت الى « جاك ماريتان » عام ١٩٢٦ تقول : « لقد فقدت افضل سبعة من اصدقائي. يعني ان الله قد منحني رحمته سبع مرات دون ان ألحظ ذلك ... » اجل ! ومنذ ذلك الحين مات جان « ديبورد » بطلاً تحت تعذيب الالمان ، وتلقى « ماكس جاكوب » صنوف التعذيب ، واني لأصلي لأجلك وأجلي . وكيف انتهى الامر « بموريس ساكس » الذي كان يتلو صلاته امام صورتك الفوتوغرافية ؟ اي « جان » ! من نكون لنمثل دور الشجعان في وجه الرب !

« المرأة المبتور نصفها الاسفل » هكذا تشبه كنيسة القديس اوغسطين والقديس توما والقديس بونفاتور والقديس فرانسوا والقديس جان دو لاكروا والقديسة تيريز ، وكنيسة بسكال ... « المرأة المبتور نصفها الاسفل » ؟ لم لا ، على كل حال ؟ ان الكنيسة جذع المساكين ، المساكين الذين لا يحصى عددهم والذين منهم انا وانت . الجذع ؟ يعني الصدر النابض فيه القلب الذي شقته الحربة . لقد شربت من ذلك الينبوع ذات صباح من عام ١٩٢٦ ، ولم يكن اسم الملائكة

الذين كانوا يحيطون بك « اورتبير » . ومهما طال عمرك فانه قريب اليوم الذي سيحيط بك فيه الملائكة من جديد ، وربما يكون « ماكس جاكوب » هو الذي دعاهم ، لان الحبل الذي تتقدم فوقه وانت ترقص منذ سنين لن يلبث ان يضيع في غياهب الاحتضار . ليشأ الله ان تدخل المرأة المبتور نصفها الاسفل غرفتك للمرة الاخيرة في اهاب رجل مكرس وهبته قوّيها على الغفران والتخليص قائلاً : « في الوقت الذي يجيُ فيه المسيح ، عند صياح الديك ... » ولسوف يصيح الديك ويبكي بمرارة فوق صدر سيده المهرج * .

الشاعر يرى ما وراء الاشياء

إليكم أحد التأملات الخريفية ، مستخرجاً من « المذكرات » ، وفيه يحدد مورياك موقفه النهائي من الطبيعة . وليس في هذا التأمل

---

* « ارجو ان يحتفظ من هذه الرسالة بالشهادة التي هي في مصلحة الكنيسة ، لا بالتهجم على شخص « كوكتو » . فلقد كان من حقي بالطبع ان ابدي الالم الذي احسست به في « مارينيي » ، ولكن ربما لم يكن من حقي ان امس علناً حياة المؤلف الدينية أو توبته او صداقاته . ومع ذلك فاني حين اعدت قراءة هذه الصفحات بدا لي بالتأكيد انها دليل على الحنق ، ولكنها تدل كذلك على اهتمام فكري عميق تجاه كاتب من المهارة بحيث يتعامى هو نفسه ويخدع الآخرين بشأن نياته . ومما لا ريب فيه انه كان ينبغي ان يسدي له شخص خدمة بأن يواجهه بالقوة وعلى الملأ بما فعل ، شخص لا يظن نفسه أحسن منه ، ويقبل بكل ترحاب ان يتلقى بدوره الدروس . »

رومنطيقية الشباب المنتشية ، وانما عاطفة اكمل واقل سذاجة واشد روحانية :

كان يكفي ان يمر يومان مطيران للتغلب على ذلك الفصل الشرس . وفي ذلك الصباح كانت التلال تعاني عناء شديداً في تبديد الضباب . وفي الساعة الحادية عشرة كانت هناك سحب ما تني تتمطى فوق الدوالي . وكانت العصافير تتنادى كما في الربيع ، ولما تزل رائحة المرجل المفتوح تعبق ، وضحكات العاملين في القطاف تسمع ! ولكن قبل ان ينحني القاطفون على اول عنقود ، كنا نحن نغني في قلوبنا :

« وداعاً ايتها السلال ! لقد تم القطاف ... »

لقد استنفدنا منذ زمن طويل جميع المشاعر المتعلقة باقترا ب الحريف ، وكل العلاقات وكل المشابهات . كانت مرآتا الارض والسماء تعكسان قلبنا ، ونحن في العشرين ، وتعيناننا على فهم خباياه . لم نكن نقرأ مباشرة ما في صدورنا ، وكان للطبيعة وحدها القدرة على تنظيم جوقة اصواتنا الداخلية ، وكان العالم في نظرنا كاشف سر الانسان . وفي تلك السن التي يعتبر فيها الحزن شهوة ، لم نكن قد ذقناه برمته إلا في بعض سويعات أفول الصيف ، حين كانت الاصوات والروائح تجعل الحزن امراً حقيقياً .

لم نعد الآن بحاجة الى تلك اللغة المرمّزة . فالانفصال بين الطبيعة والقلب دليل على انتهاء الشباب . وقد آن الاوان لكي يتجرأ المرء على مواجهة نفسه ، ولسوف نستغني من الآن فصاعداً عن كل ترجمان .

العربات القديمة ، والتي كانت اسواط حوذييها تشتبك بأغصانها الدانية ... انها تأتي لتموت امام بابي بالضبط ... تباً لها ! اننا لم نعد بحاجة اليها لنفكر في الموتى الذين لا بد انهم طالما شعروا بالسأم والألم في ظلالها .

ان الطبيعة ضرورية لنا كالكذب . لكننا تجاوزنا عمر الكذب ، وابتعد جداً عهد الشباب الذي كنا نلجأ فيه الى تلك الانتقالات الرعوية ، الى تلك الامتدادات لقلبنا في عالم النبات التي اعانت « موريس دي غيران » على الخلود .

ومع ذلك فان الشاعر المسيحي لن يختم تأمله عند هذه النقطة التي كان يتوقف عندها عجوز رابط الجأش . فهو لا يشعر طويلاً بأنه مكره على ازدراء تلك الطبيعة ، ولا أنه مضطر لإدانة مشاعر مراهقته العارمة .

هل سأكتب هكذا طويلاً ضد قلبي ؟ ان الهواء من الهدوء هذا المساء بحيث لا تتبدد سحب الدخان فوق السهل . والشمس الغاربة تقترب من الدوالي الساكنة وتخترق بأشعتها أوراقها السميكة التي تكاد تكون من المعدن . والسماء الزرقاء كما رآها الشاعر « ساكنة نائمة » . انها لغبطة غير نابعة من ذاتنا ، وسلام ليس سلامنا . انها لدعة لا انسانية ، وانعكاس لوجه لا نراه . وحينما نظن بأننا قد انسحبنا من اللعبة ، وان السهل الشاسع لم يعد منذ سنوات ذلك النسيج المشدود الذي كان يعكس عليه قلبنا الشاب شهواته ، فان الفكر لا يكون أقل

مُوريَــــاك

لقد انتهى عهد الظن بأن ليالي الصيف مصنوعة على قدّ الحب ، وان الريح تحمل انّات الناس بين الاغصان .

ان موريّاك يستدعي عند ذلك ايام الخريف في شبابه ، تلك الايام المثقلة بالرجاء والوعود بالسعادة .

كان يملأ اهابنا حينذاك شعور بالاستجمام قبل العودة الى المدينة على اعتاب عام من السعادة . كان الخريف يغدو وكأنه عشية الاستعداد للحرب . وحين كانت تهب الريح عند بدء المدّ ، كانت الزيزفونات العتيقة ترتعش بالبشائر . كنا نحس ثقل الانتظار ونوعاً من الصبر المقدس عند حافة تلك الشرفة التي كانت تتجمع فيها كل الشهوات استعداداً للرحيل .

وذلك الجو من الانتظار ، ما عسانا نفعل به في عمرلم نعد ننتظر فيه شيئاً ، وكل رجائنا ألا يحدث فيه شيء خارج ما نريد ؟ (والسعادة ، ان ما كنا ندعوه سعادة ، ونحن في العشرين ، ربما كان الزائر الذي قلما توقعناه وطالما خشيناه). ان الطبيعة بالنسبة للانسان الناضج هي بالتأكيد خارج الاستعمال ؛ انها اشبه ما تكون بمخازن لقطع غيار لم تعد صالحة . ونحن نرفض ان نرق حيالها كما كنا نفعل من قبل . وكل الصلصال الذي لم يستخدمه الله في صنع جسد آدم ، لا يستحق ضربة العقب التي أمارسها عليه . ان في وسع اشجار الدردار في بلدي ان تَنْفُق (كما تفعل جميعاً) دون ان اهدي اليها دمعة واحدة . وها هي جثتها منتصبة على امتداد الطرق التي شاهدت عليها مرور

اثارة لاغصان الزيزفون ... انظر ، ان ضياء الساعة السادسة هذا المساء يفصح في أقل ورقة عن ابدية نستشعرها وتعجز ايدينا المسكينة عن الامساك بها .

متى سننتهي من إخضاع الارض والسماء لكآبة الخطيئة ؟ ان الليل الحقيقي ليس ذلك الليل البدني المعبّر عن الرغبة ، المتواطئ معها . لقد حرفنا العالم المرئي عن غايته الحقيقية ، كما فعلنا طوال حياتنا بكل مخلوق حي كان يهمّ به قلبنا .

ولا تظنن ان الارض ، وقد تخلصت من شهواتنا ، لم تعد سوى طين أعمى ، ولا ان الاشجار صارت اشبه بمخلوقات بلا وجوه . فمن اين تنزل تلك السكينة التي لا تنبع من ذواتنا ، في الساعة التي تمتد فيها الظلال ؟ ان ايلول ما زال ، كما كان في ايام المراهقة ، انتظاراً واستشعاراً ... ولكن ليست المغامرة الانسانية المسكينة هي التي نحن بانتظارها .

(من « المذكرات » ج ٢)

●

... ان فرنسوا مورياك كان احد الوجوه المشرقة لعصره ، وواحداً من الكتّاب الذين لا يمكن ان تنسى اسماؤهم ، بفضل قوة شخصيته ، وطرافة موهبته وضخامتها ، ووقوفه على خبايا الضمائر ، وحتّى تدخّله في الاحداث . لقد كان حواره المألوف يتم مع العظماء : « بسكال »

مُوريـــاك

و « شاتوبريان » و « بروست » و « جيد » و « كلوديل » . اما وقد غاب فمن ذا للذي يمكنه ان يبرهن بمثل سلطانه على عبقرية فرنسا الادبية ؟ لقد انطفأ نور من الانوار وسط ظلام ليلنا .

قصائد وروايات وابحاث وذكريات حميمة ومذكرات ، تلكم آثار غزيرة هي نتاج ستين سنة من العمل ! فمن اين له ذلك للسحر في نفوس جمهور لم يتوقف عن للتزايد في فرنسا كما في الخارج ؟ انه تأتى من مضمون آثاره الادبية بما تثيره من اضطراب في للنفوس وهي تلقي بمشكلات الحياة للشخصية والاجتماعية وكأنها حجارة ملتهبة ؛ وبما تجبر معه الانسان على ادراك أجلى لطبيعته وكرامته وحظوظه ومخاطره في مغامرته الدنيوية . لكن تلك الكثافة المتألقة للاشياء المقولة ، ما كانت لتدفع جمهوراً من المستمعين في مثل هذا الاتساع والاستمرار ، لو لم يقلها شاعر .

ليس من كتّاب كبار سوى الشعراء . هذا ما تعلمنا إياه أُلفتنا مع الآداب . وقد كان مورياك شاعراً بالمعنى الدقيق للكلمة ، لانه عرف احياناً ان يختصر جوهر عبقريته في شكل قصيدة . ويتجلى ذلك في قصائده للتي تجمع بين نفس «دي غيران» ونفس «فاليري» ، مثل « عواصف » و « دم آتيس » ، اكثر مما يتجلى في الابيات المتلعثمة — على طريقة « جيمس » — التي قالها في مراهقته التقيّة ، ولا سيما قصيدة «آتيس» التي اعترف مورياك بأنها « تظل من بين جميع ما كتبت أقلها تخييباً لي . »

ولقد كان شاعراً أجود ، في نثره المرصع بالصور ، الحافل عن دراية بالموسيقى . وان حسيته الضخمة الغنية التي ابرزت له كفنان حقيقة العالم الخارجي الملموسة ، واوقفته بحمية على حياته الجسدية ، هي التي صاغت له ديباجته المتميزة في النثر عنها في الشعر ...

ايلول ١٩٧٠

فهرس

La présente série de la Collection « Que Sais-je » a été réalisée grâce à l'appui des Sociétés suivantes :

AIR FRANCE

COMPAGNIE FRANÇAISE DES PÉTROLES

BANQUE NATIONALE DE PARIS

SOCIÉTÉ GÉNÉRALE

ENTREPRISE DUMEZ

UNION DES BANQUES ARABES ET FRANÇAISES

et avec l'aide du

DÉPARTEMENT DES RELATIONS CULTURELLES

•

أسهمت في نشر هذه السلسلة من مجموعة « مـــاذا أعرف » الشركات التالية :

شركة الطيران الفرنسية

شركة الزيوت الفرنسية

مصرف باريس الوطني

الشركة العـــامة

شركة دومـــيز

إتحاد المصارف العربية والفرنسية

وبمساعدة وزارة العلاقات الثقافية

المطبعة البولسيّة
جونيه - لبنان

المنشورات العربية